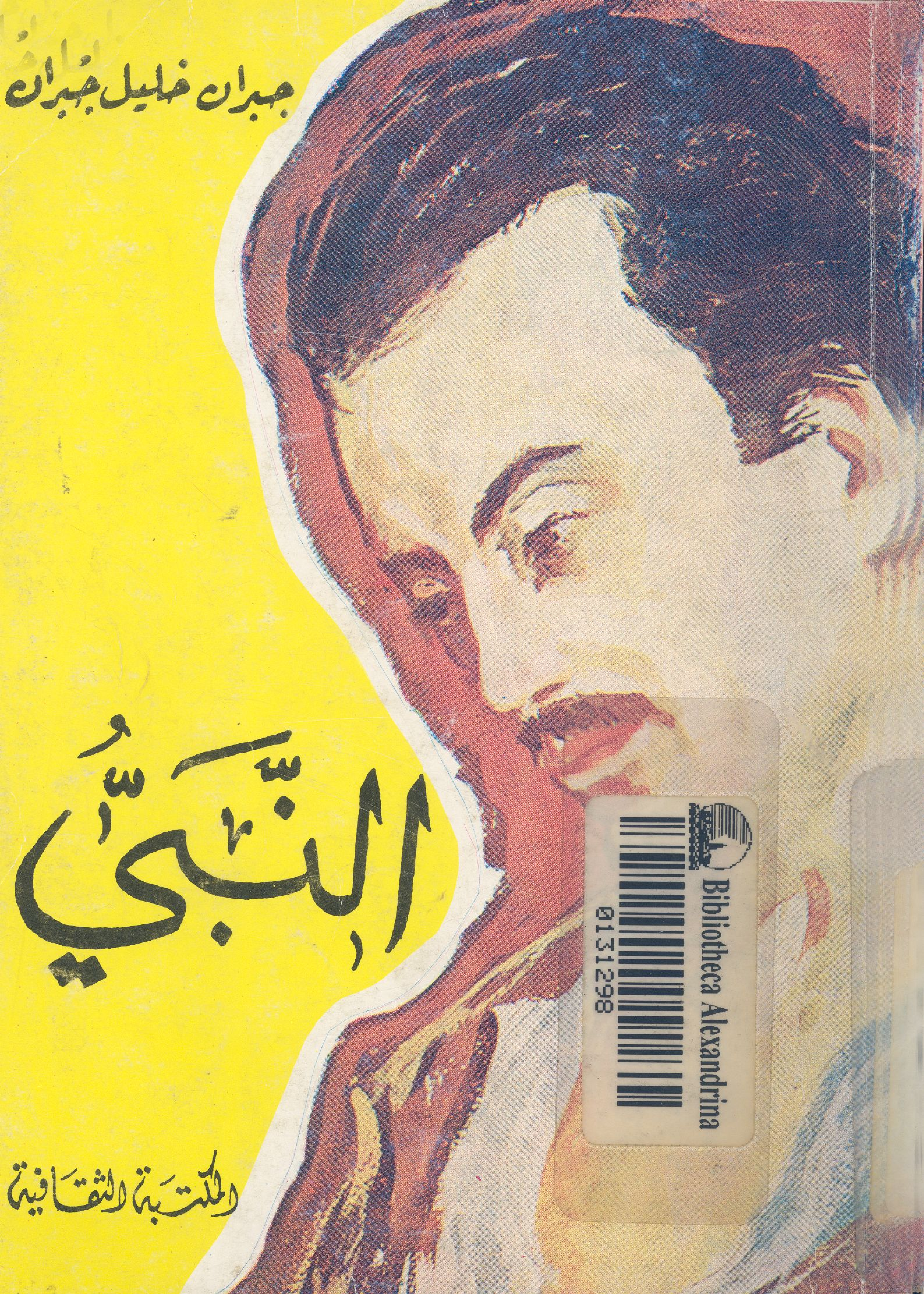
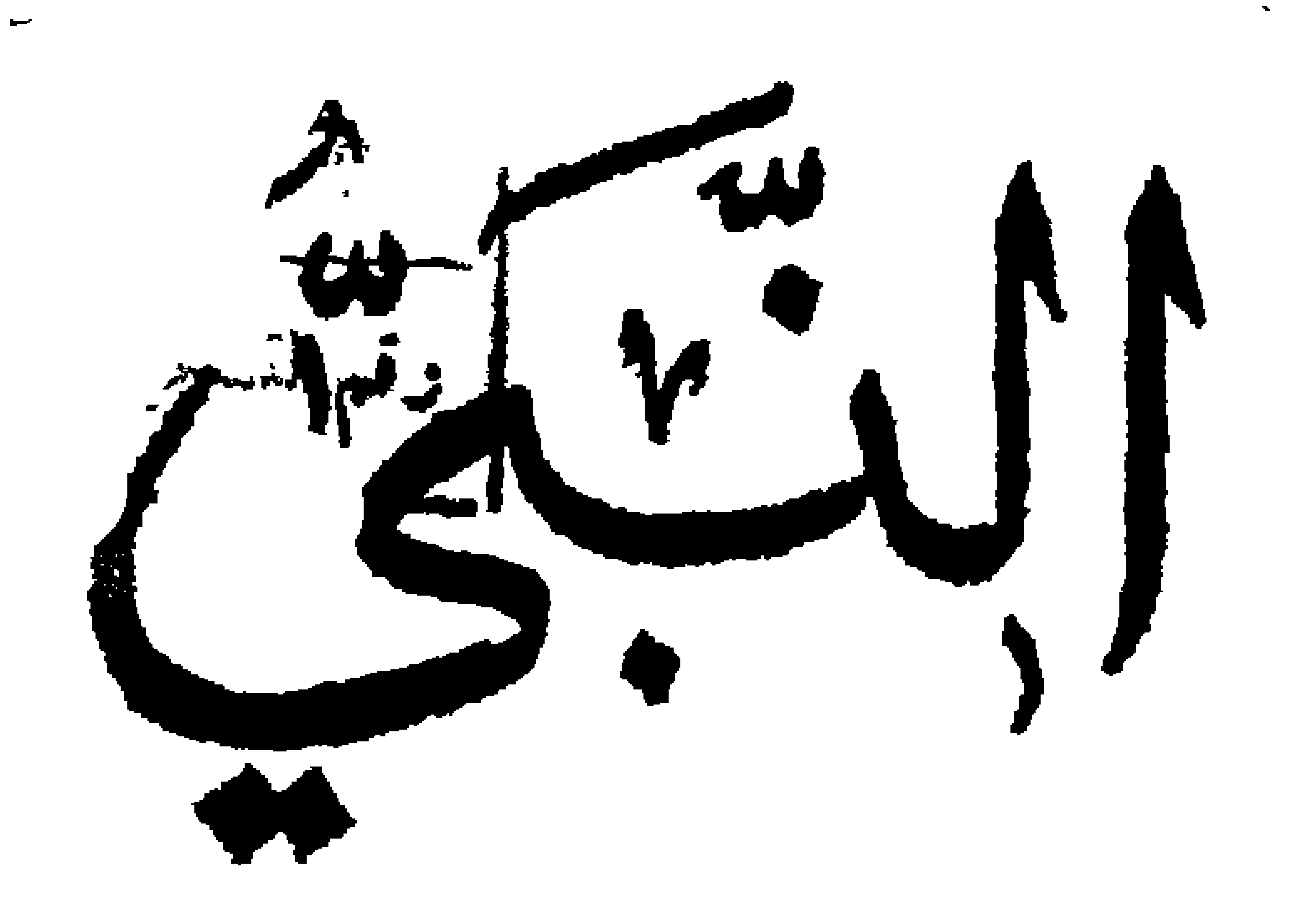

جبران خليل جبران
النبيّ
المكتبة الثقافية



ثالث كتاب وضعه بالانكليزية

جبران خليل جبران

عربه الارشمندريت انطونيوس بشير

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

تاريخ هذا الكتاب

ان تاريخ كتاب النبي هذا طريف ، فقد قضى جبران جانباً من مرحلة الطفولة في أمريكا مع أمه وأخيه وأختيه ، ولما بلغ الرابعة عشرة أصر على العودة الى عالم الأدب العربي والثقافة العربية في بيروت لإتمام دراسته .

وبعد مرور عامين على وصوله الى بيروت ، كتب أول مسودة لكتاب (النبي) باللغـــة العربية ، ولكنه وضعه جانباً لأنه كان يدرك انها فاكهة فجة ، وبعد ثلاث سنوات أتم مرحلته الدراسية ، ونزح الى باريس ، حيث طاب له المقام في بيئة الفن والصداقة والثقافة ، وكان (النبي) من الاشياء التي يحرص على الاحتفاظ بها . وفي السنة العشرين من عمره ، استدعي الى بوسطن على عجل من باريس لمرض أمه في أمريكا ، وهناك قرأ على مسامعها ما كتبه عن (النبي) . وكانت أمه حكيمة في شبابه ، كما كانت حكيمة في طفولته ، فأصغت الى ما دبجته يراعة الفتى ، وقالت له :(عظيم يا بني، ولكن لم يئن الأوان لنشره بعد . ضعه جانباً) وكان الفتى مطيعاً فوضعه جانباً .

وفي الخامسة والعشرين من عمره كان مرة أخرى في

باريس ، وهناك أعاد كتابة (النبي) بالعربية كما كان من قبل ثم قرأه لنفسه ، لأن أمه لم تكن عند ذاك على قيد الحياة ، لتستمع له وسرعان ما طوى المسودة قائلاً : (عظيم يا بني ، ولكن لم يئن الأوان بعد ، ضعه جانباً) ومرة اخرى وضع جبران قصة (النبي) جانباً . الى ان مضت عشر سنوات ، قضى منها سنتين في باريس ، اتصل خلالها بشخصيات عظيمة وبعدها سافر الى أمريكا واتخذ نيويورك مقرا له ، وهنا أعاد كتابة النبي باللغة الانكليزية بصورة مبتكرة لم تكن ترجمت عن العربية ، وقد أعاد كتابه خمس مرات في خمس سنوات متواليات كاملة ، قبل أن يوضع في يد النشر ، وكان يبدأ كل كراسة عادة بعبارة يكتبها بالعربية ، ومما كتبه في آخر كراسة (اللهم أعني على التعبير عن الحق بما يسطره قلمي من آيات الجمال في هذه الكراسة) وقبل ذلك كتب على كراسة (أيها الأخ ، إن المشكلة التي آلمتك قد آلمتني) .

بربارة ينج

كلمة المترجم

لو قصرنا الدين على أثوابه الخارجية ، لكان جبران كافراً وكان مترجم هذا الكتاب مخطئاً في نقله إلى العربية – وإن كان ناقل الكفر ليس بكافر . ولكن لو نظرنا في الدين إلى جوهره دون قشوره ، لرأينا أن جبران في طليعة المؤمنين العاملين على نشر الحقيقة الأزليـــة مجردة عن زخرف الوهم وبهرجة الرسم ، متحلية بجلباب فتان من الفن الخالد .

في العقائد والمذاهب المنتشرة في العالم اليوم ، كما في جميع نظمه الاجتماعية ، قشور يابسة ممتلئة من سوس الماضي – تقضي على ما بقي من اللباب في هذه العقائد والمذاهب – فهنالك أنصار الحرف القاتل الذين يؤلفون الأكثرية الساحقة بين ذوي الشرائع يحاربون الروح المجددة بكل ما لديهم من آلات الحرب والشر التي ورثوها عن جدودهم الغير على فريسية الناموس والأنبياء. هؤلاء هم أبناء ظلمة الأمس يقضون أعمارهم متمسكين بأهداب الشريعة الصماء ، وإن كانت الشريعة تقتل أرواحهم وتعمل على قهرهم وجمودهم ومذلتهم . وهنالك أنصار الروح المحيية الذين يؤلفون الأقلية الصغرى في الناس يحاربون جيوش الظلمة ويحسرون القناع عن وجه الحقيقة بكل ما أوتوا من حكمة ومعرفة . هؤلاء هم أبناء ثورة الغد يحترمون الشريعة

بمقدار ما تحترم الشريعة الحياة التي في قلوبهم . ويضربون بها عرض الحائط إذا كانت تغــل ارادتهم وتثقل كاهلهم بنير الجهل والغباوة .

والأديب المجدد ، الذي دعي نابغة المهجر ورسول الشرق إلى الغرب ، **جبران خليل جبران** مؤلف هذا الكتاب هو في مقدمة أنصار الروح هؤلاء .

ولذلك يسرني أن أقدم إلى قراء العربية المفكرين خلاصة أفكاره وآرائه في أسرار الحياة من المهد إلى اللحد ،مجموعة في هذا الكتاب الصغير الطافح بثمرات نبوغه وعبقريته .

أجل، إن في أعماق جبران نفساً تطمح إلى الجديد المفيد ، وتنفر من كل تقليد بليد ، فهو لا يكتب إلا ما يعتقده حقاً وصواباً ، ولذلك تأتي كتابته مرآة نقية تعكس شخصية كبيرة تأبى أن تتقيد بقيود الماضي أو أن تلبس حلة غير حلتها ، بيد أن هذه الشخصية الممتازة قد ظهرت في أوج عظمتها وكمال روحانيتها في هذا الكتاب الذي أودعه المؤلف خلاصة آرائه في الحب ، والزواج ، والأولاد ، والبيوت ، والثياب ، والبيع والشراء ، والجرائم ، والعقوبات ، والحرية، والشرائع ، والعقل ، والهوى ، والإثم ، والصداقة ، والدين، والموت ، وغير ذلك على لسان نبي سماه المصطفى ، وكأننا بالمؤلف قضى حياته يستعد لإخراج هذا السفر النفيس،فإن كتبه السابقة من عربية وانكليزية ليست سوى مقدمات لما في هذا

الكتاب من حكمة ، وفلسفة ، وشعر وفن ، فلا ترى فيه جبران الثائر الذي تراه في العواصف والأرواح المتمردة ، ولا جبران الشاعر الذي تراه في (آلهة الأرض) و (ايها الليل) وغيرهما ، ولا جبران المتألم في (لكم لبنانكم ولي لبناني)وفي صورة (وجه امي وجه امتي) ، ولا جبران المعلم الحكيم في (القشور واللباب) ، و(المجنون) و (السابق)ولا جبران الرسام الرمزي في جميع ما ابرزته ريشته الساحرة،ولا جبران الخيالي في بين ليل وصباح ، وفي حفار القبور ، بل ترى في هذا الكتاب جبران الذي هو من هذه العناصر جميعها ، بل هو خلاصتها المختارة فانك لا تقرأ فصلاً من فصوله الا وترى امامك حكمة من خيال وفلسفة في بلاغة وجمال .

قال أحد كبار المفكرين الغربيين : (ان جبران حدث في العمر ولكنه شيخ في الحياة ، فهو كالاحداث تواق للجمال وكالشيوخ متعشق للحكمة والحقيقة . فكأننا به يقول : سأدرك جميع الحقائق، سأعرف ما لا يوجد ناقصاً فيالموازين ، سأبكي مع الباكين ، وسأضحك مع الضاحكين ، سأسيح في جميع الفصول ، وحيثما سرت سأهتدي إلى محجتي) .

وقال آخر : (ليس في حياة جبران من أثر للتقليد أو الجمود ، فلا هو بالمتفائل ولا بالمتشائم ، ولا هو بالكاهن ولا بالكافر . بيد انه بالحقيقة نبي بعيد النظر، مترنم أبداً بأناشيد الفن الخالدة، ولعله يرى بعينيه الشرقيتين ما لا تتاح لنا رؤيته

نحن أبناء الغرب ، ولا غرو فإن معلمي الإنسانية يجيئون دائماً من الشرق !)

وقال أديب آخر : (إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق بل ترغم قارئها على إعمال ذهنه وعقله . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران) .

وقال غيره : (نحن نعتقد ان مؤلفات جبران بستان خالد ممتلىء بأثمار الغبطة والبهجة . بل هو جنة نور عجيب لا يعثر فيها حتى أعداء الحقيقة أنفسهم) .

وقال آخر : (إن جبران قد اقترب من الغرب وعلى شفتيه ابتسامة الشرق الجميلة، يحمل عطية ثمينة في صدره لكي يقدمها إلى الغرب . فقد جاء كالمسيح يطفح قلبه محبة) .

وقال أوغست رودين أعظم نحاتي العصر الحاضر بعد أن عرف جبران عندما كان يعرض صوره في باريس : « إن العالم يجب أن ينتظر كثيراً من شاعر لبنان ونابغته جبران . فهو وليم بلايك القرن العشرين ! » .

هذا قليل من كثير مما لدينا من أقوال علماء الغرب في « النبي » رأينا أن نثبته لأبناء الشرق لكي يعرفوا ان الغرب يقدر النابهين من رجـــال الشرق قدرهم وينزلهم منزلتهم من الاعتبار . وربما كانت هذه أبرز ميزات الغرب على الشرق في استثمار مواهب الناس .

ولا بد لنا قبل الفراغ من كلمتنا هذه أن نلفت أنظار القراء الكرام إلى الملاحظات التالية :

١ — جبران يصور فكره قبل أن يعبر عنه بالألفاظ لأنه من نوابغ المصورين ، لذلك فليعن القارىء بدرس صورة كل فكر من أفكار المؤلف قبل أن يدرس الألفاظ التي تعبر عنها.

٢ — جبران مفكر عميق وشاعر غير مخير في شاعريته ، فكل عبارة تخرج من شفتيه ملؤها الفكر والشعر . فإذا لم تشاطر جبران شعوره ، وتصبغ فكرك بصبغة فكره ، فعبثاً تحاول أن ترافقه في سياحاته .

٣ — ليس جبران كافراً ، بل هو مؤمن صادق في دينه ، وهو يعتقد أن الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات ، وربما كان الفرق بين دينه ودين الذين يرشقونه (بالحرم الثقيل) كالفرق بين دين يسوع ودين الكتبة والفريسيين المرائين الذين كانوا يقولون إن فيه شيطاناً .

٤ — رأينا أن نثبت في ترجمة « النبي » العربية الرسوم الاثني عشر التي رسمها المؤلف للأصل الانكليزي . ولله هذه الرسوم البديعة التي لا بد منها لإكمال الكتاب . فالصورة الأخيرة من أروع ما تصور به القوة المدبرة التي وراء هذا الكون . يد تعمل ، وبصيرة ترى ، وحولها العوالم صنعها في حلقات متراكزة ، ومع أن هذا النوع من التصوير الرمزي جديد في العالم العربي فانه أجمل ما تزين به المتاحف ودور

العلم وبيوت العبادات في العالم المتمدن . لذلك فلينظر القارىء إلى الحقيقة التي يرمز اليها كل رسم من هذه الرسوم قبل أن يقصر نظره على الرسم نفسه .

٥ — ليس « النبي » رواية أو حكاية يكفي أن يمر بها القارىء ليدرك فحواها، ويفهم الحقيقة المنطوية عليها، ولكنه دائرة علم ، وأدب ، وفن ، وحكمة ، وفلسفة . فلا تترك عبارة من عباراته قبل أن تقف على الحقيقة التي وراءها ، وتتفهم العقيدة الجديدة التي تحملها اليك ، فان جاءت مثبتة لما لديك فاقتبلها واحتفظ بها ، وان جاءت غريبة كما عرفته وألفته فلا ترفضها بل ضعها في دائرة من ذاكرتك ثم عد اليها بعد حين متذكراً أن الذين اضطهدوا غاليلو واحتقروا آراءه الغريبة ما كانوا لمضطهدوه لو عاد وعادوا إلى الحياة اليوم !.

الارشمندريت
انطونيوس بشير

النبـي

وظل المصطفى، المختار الحبيب، الذي كان فجراً لذاته ، يترقب عودة سفينته في مدينـــة اورفليس اثنتي عشرة سنة ليركبها عائداً الى الجزيرة التي ولد فيها .

وفي السنة الثانية عشرة . في اليـــوم السابـع من ايـلول شهر الحصاد ، صعد الى قمة احدى التلال القائمة وراء جدران المدينـــة والقى نظرة عميقـة الى البحر ، فرأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب .

فاختلج قلبه في أعماقه ، وطـــارت روحه فوق البحر فرحاً ، فأغمض عينيه ، ثم صلى في سكون نفسه .

غير أنه ما هبط عن التلة حتى فاجأتـه كـآبة صمـــاء ، فقال في قلبه :

كيف أنصرف من هـذه المدينـة بسلام ، واسير في البحر من غـير كآبة ؟ كلا ! إنني لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحي .

فقد كانت أيام كآبتي طويلة ضمن جدرانها ، وأطول منها

كانت ليالي وحدتي وانفرادي ، ومن ذا يستطيع ان ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم في قلبه ؟

كثيرة هي أجزاء روحي التي فرقتها في هذه الشوارع : وكثير هم أبناء حنيني الذين يمشون عراة بين التلال ، فكيف أفارقهم من غير أن أثقل كاهلي. واضغط روحي !

فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم أرتديه غداً ، بل هو بشرة أمزقها بيدي .

كلا ، وليس فكراً أخلفه ورائي ، بل هو قلب جملته مجاعتي وجعله عطشي رقيقاً خفوقاً .

* * *

بيد أنني لا أستطيع أن أبطىء في سفري .

فإن البحر الذي كان يدعو كل الأشياء اليه يستدعيني ، فيجب علي أن أركب سفينتي وأسير في الحال الى قلبه .

ولو أقمت الليلة ههنا ، فإنني – مع أن ساعات الليل ملتهبة – اجمد وأتبلور وأتقيد بقيود الأرض الثقيلة .

وأنني أود لو يتاح لي.أن يصحبني جميع الذين ههنا . ولكن أنى يكون لي ذلك ؟

فإن الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللواتي تسلحن بجناحيه . ولذلك فهو وحده يخترق حجب الفضاء .

اجل والنسر ، يا صاح ، لا يحمل عشه بل يطير وحده محلقاً في عنان السماء .

* * *

وعندما بلغ المصطفى سفح التلة التفت ثانيـــة الى البحر فرأى سفينته تدنو من المرفإ ، وأبناء بلاده يروحون ويجيئون على مقدمها .

فهتف لهم من صميم فؤاده وقال :

يا ابناء أمتي الأولى، ايها الراكبون متون الامواج المذللون مدها وجزرها .

كم من مرة ابحرتم في احلامي ! وها قد اتيتم ورأيتـكم في يقظتي التي هي اعمق احلامي .

اني على اتم الأهبة للابحار ، وفي اعماقي شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر .

ولكنني أود ان اتنفس مرة واحدة في هذا الجو الهادىء وأن ابعث بنظرة واحدة إلى الوراء .

وحينئذ أقف معكم ، ملاحاً بين الملاحين .

أما انت ايها البحر العظيم ، ايها الام الهاجعة .

انت ايها البحر العظيم الذي فيك وحدك يجد النهر والجدول سلامهما وحريتهما .

فاعلم ان هذا الجدول لن يـدور الا دورة واحدة بعد ، ولن يسمع احد خريره على هذا المعبر بعد اليوم ، وحينئذ آتي اليك ، نقطة طليقة إلى اوقيانوس طليق .

* * *

وفيما هو ماش رأى عن بعد رجالاً ونساء يتركون حقولهم وكرومهم ويهرولون الى أبواب المدينة .

وسمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل الى حقل مرددين اسمه وكل منهم يحدث رفيقه بقدوم سفينته .

* * *

فقال في نفسه :

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع ؟

أم يجري على الافواه ان مسائي كان فجراً لي ؟

وماذا يجدر بي ان اقدم للفلاح الذي ترك سكته في نصف ثلمه ، وللكرّام الذي اوقف دولاب معصرته ؟

أيتحول قلبي الى شجرة كثيرة الاثمـــار فاقطف منهـــا واعطيهم ؟

أم تفيض رغباتي كالينبوع فأملأ كؤوسهم ؟

هل أنا قيثارة فتلامسني يد القدير ، أم انا مزمار فتمر بي أنفاسه ؟

أجل ، انني هائم أنشد السكينة ، ولكن ما هو الكنز الذي وجدته في السكينة لكي اوزعه بطمأنينة ؟

وإن كان هذا اليوم يوم حصادي ففي أية حقول بذرت بذاري ، وفي أي فصل من الفصول المجهولة كان ذلك ؟

وان كانت هذه هي الساعة التي يجدر بي ان ارفع فيها مصباحي واضعاً اياه على منارتي ، فان النور الذي يتصاعد منه ليس مني :

لأني سأرفع مصباحي فارغاً مظلما .

ولكن حارس الليل سيملأه زيتاً ، وسينيره ايضاً .

* * *

قال هذا معبراً عنه بالألفاظ . ولكن كثيراً مثل هـــذا حفظه في قلبه من غــير ان يعلنه ، لأنه هو نفسه لم يقدر ان يوضح سره العميق .

* * *

وعندما دخل المدينــــة استقبله الشعب باسره ، وكانو يهتفون له مرحبين به بصوت واحد .

فأوقفه شيوخ المدينة وقالوا له :

بربك لا تفارقنا هكذا سريعاً ،

فقد كنت ظهيرة في شفقنا ،

وقد اوحى شبابك الاحلام في نفوسنا

وانت لست بالغريب بيننا ، كلا ، ولا انت بالضيف بل انت ولدنا وقسيم ارواحنا الحبيب .

فلا تجعل عيوننا تشتاق إلى رؤية وجهك .

* * *

ثم قال له الكهان والكاهنات :

لا تأذن لأمواج البحر ان تفصل بيننا ، فتجعل الأعوام التي قضيتها بيننا نسياً منسيا .

فقد كنت فينا روحاً محبية ، وكان خيالك نوراً يشرق على وجوهنا .

قد تعشقتك قلوبنا ، وعلقتك ارواحنا .

ولكن محبتنا تقنعت بحجب الصمت ، فلم نستطع ان نعبر عنها .

بيد انها تصرخ الآن باعلى صوتها ، وتمزق حجبها بيديها لكي تظهر لك حقيقتها .

فان المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها الا ساعة الفراق .

* * *

ثم جاء اليه كثيرون متوسلين متضرعين فلم يرد على أحد جواباً . ولكنه كان يحني رأسه ، وكان الواقفون حوله ينظرون عبراته تتساقط بغزارة على وجنتيه وصدره .

وظل يمشي مع الشعب حتى وصلوا الى الساحة الكبرى أمام الهيكل . .

• • •

المطرة

وحدث إذ ذاك ان امرأة عرافة خرجت من المقدس ، اسمها المطرة .

فنظر اليها نظرة ملؤها الحب والحنان ، لأنها كانت اول من سعى اليه وآمن به مع انه لم يكن له الا ليلة وضحاها في مدينتهم .

فحيته باحترام وقالت له :

يا نبي الله ، قد طالما كنت تسعى وراء ضالتك المنشودة ، مفتشاً عن سفينتك التي كانت بعيدة عنك .

وها قد وصلت سفينتك ، ولم يبق من بد لسفرك .

عظيم هو حنينك الى ارض احلامك وتذكاراتك ومواطن الفائقات من رغباتك ، ولذلك فان محبتنا لا تقيدك ، وحاجتنا اليك لا تمسك بك .

ولكننا نسألك قبل ان تفارقنا :

ان تخطب فينا وتعطينا من الحق الذي عندك .

ونحن نعطيه لاولادنا ، واولادنا لأولادهم وحفدتهم وهذا يثبت كلامك فينا على ممر العصور .

ففي وحدتـــك كنت ترقب ايامنا ، وفي يقظتك كنت تصغي الى بكائنا وضحكنا في غفلتنا .

لذلك نضرع اليك ان تكشف مكنوناتنا لذواتنا، وتخبرنا بكل ما اظهر لك من اسرار الحياة من المهد الى اللحد ٠

* * *

فأجاب قائلاً :

يا ابناء اورفليس ، بماذا احدثكم ان لم اظهر لكم ما يختلج في نفوسكم وتتحرك به ضمائركم حتى في هذه الساعة ؟

المحبـــة

حينئذ قالت له المطرة : هات لنا خطبة في المحبة .

فرفع رأسه ونظر الى الشعب نظرة محبة وحنان ، فصمتوا جميعهم خاشعين . فقال لهم بصوت عظيم :

اذا اشارت المحبة اليكم فاتبعوها .

وان كانت مسالكها صعبة متحدرة .

واذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها ،

وان جرحكم السيف المستور بين ريشها .

واذا خاطبتكم المحبة فصدّقوها ،

وان عطل صوتها احلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً .

لأنه كما ان المحبة تكللكم ، فهي ايضاً تصلبكم .

وكما تعمل على نموّكم، هكذا تعلمكم وتستأصل الفاسد منكم.

وكما ترتفع الى اعلى شجرة حياتكم فتعانق اغصانها اللطيفة المرتعشة امام وجه الشمس .

هكذا تنحدر الى جذورها الملصقة بالتراب وتهزهـــا في سكينة الليل .

* * *

المحبة تضمكم الى قلبها كاغمار الحنطة .

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم .

وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم .

وتطحنكم لكي تجعلكم انقياء كالثلج .

وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا ،

ثم تعدكم لنارهـــا المقدسة ، لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقرب على مائدة الرب المقدسة .

* * *

كل هذا تصنعه المحبــة بكم لكي تدركوا اسرار قلوبكم ، فتصبحوا بهذا الادراك جزءاً من قلب الحياة .

غير انكم اذا خفتم ، وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة في المحبة :

فالأجدر بكم ان تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة الى العالم البعيد حيثما تضحكون ، ولكن ليس كل ضحككم، وتبكون ، ولكن ليس كل ما في مآقيكم من الدموع .

* * *

المحبة لا تعطي الا نفسها ، ولا تأخذ إلا من نفسها .

المحبة لا تملك شيئاً ، ولا تريد ان يملكها احد ، لأن المحبة مكتفية بالمحبة .

اما انت اذا احببت فلا تقل : « ان الله في قلبي » ، بل قل بالاحرى « انا في قلب الله » .

ولا يخطر لك البتة انك تستطيع ان تتسلط على مسالك المحبة ، لأن المحبة ، ان رأت فيك استحقاقاً لنعمتها ، تتسلط هي على مسالكك .

والمحبة لا رغبة لها الا في ان تكمل نفسها .

ولكن اذا احببت ، وكان لا بد من ان تكون لك رغبات خاصة بك ، فلتكن هذه رغباتك .

ان تذوب وتكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بأنغامه . ان تخبر الآلام التي في العطف المتناهي .

ان يجرحك ادراكك الحقيقي للمحبة في حبة قلبك ، وان تنزف دماءك وانت راض مغتبط .

ان تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق ، فتؤدي واجب الشكر ملتمساً يوم محبة آخر .

أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة .

أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً ،

فتنام حينئذ والصلاة لأجل من أحببت تتردد في قلبك وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك .

الزواج

ثم قالت له المطرة ثانية : وما رأيـــك في الزواج أيها المعلم ؟

فأجاب قائلاً :

قد ولدتم معاً ، وستظلون معاً إلى الأبد .

وستكونون معاً عندما تبدد ايامكم أجنحة الموت البيضاء.

أجل ، وستكونون معاً حتى في سكون تذكارات الله .

ولكن فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم .

أحبوا بعضكم بعضا ، ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود ، بل لتكن المحبة بحرا متموجاً بين شواطىء نفوسكم .

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه ، ولكن لا تشربوا من كأس واحدة .

أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد .

غنوا وارقصوا معاً ، وكونوا فرحين ابداً ولكن فليكن كل منكم وحده .

كما ان اوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده ولكنها جميعاً تخرج نغماً واحداً .

* * *

ليعط كل منكم قلبه لرفيقه ، ولكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ لأن يد الحياة وحدها تستطيع ان تحتفظ بقلوبكم .

قفوا معاً ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً . لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين .

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظل رفيقتها.

● ●

الابنــاء

ثم دنت منه امرأة تحمل طفلها على ذراعيها وقالت له : هات حدثنا عن الأولاد .

فقال :

إن أولادكم ليسوا أولادا لكم .

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها ، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم .

ومع انهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم .
انتم تستطيعون ان تمنحوهم محبتكم ، ولكنكم لا تقدرون ان تغرسوا فيهم بذور أفكاركم ، لأن لهم افكاراً خاصة بهم .

وفي طاقتكم ان تصنعوا المساكن لأجسادهم .
ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم :
فهي تقطن في مسكن الغد ، الذي لا تستطيعون ان تزوروه حتى ولا في أحلامكم .
وان لكم ان تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم .
ولكنكم عبثاً تحاولون ان تجعلوهم مثلكم .

لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء ، ولا تلذ لها الاقامة في منزل الأمس .

أنتم الاقواس وأولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم .

فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى .

لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة .

لأنه كما يحب السهم الذي يطير من قوسه ، هكذا يحب القوس التي تثبت بين يديه .



العطـــاء

ثم قال له رجل غني : هات حدثنا عن العطاء .

فأجاب قائلاً :

إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك

ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جـــزءاً من ذاتك .

لأنه أي شيء هي ثروتك ؟

أليست مادة فانية تخزنهـــا في خزائنك ، وتحافظ عليها جهدك خوفاً من ان تحتاج اليها غداً ؟

والغد ، ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ الفطنة الذي يطمر العظام في الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجاج إلى المدينة المقدسة ؟

او ليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها ؟

او ليس الظمأ الشديد للمـــاء عندمـــا تكون بئر الظامىء ملآنة هو العطش الذي لا تروى غلته ؟

* * *

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عنـــدهم وهم

يعطونه لأجل الشهرة ، ورغبتهم الخفية في الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم .

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونه بأسره .

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة هؤلاء لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ممتلئة ابداً .

ومن الناس من يعطون بفرح ، وفرحهم مكافأة لهم .

ومنهم من يعطون بألم ، وألمهم معمودية لهم .

وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطائهم ، ولا يتطلبون فرحاً ، ولا يرغبون في اذاعة فضائلهم ، وهؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطي الريحان عبيره العطر في ذلك الوادي .

بمثل ايدي هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم يبتسم على الارض .

جميل ان تعطي من يسألك ما هو في حاجة اليه ،

ولكن اجمل من ذلك ان تعطي من لا يسألك وانت تعرف حاجته ، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون فرحه بسعيه الى من يتقبل عطاياه والاهتداء اليه اعظم منه بالعطاء نفسه .

وهل في ثروتك شيء تقدر ان تستبقيه لنفسك ؟

فان كل ما تملكه اليوم سيتفرق ولا شك يوماً ما ،

لذلك اعطِ منه الآنَ ليكون فصل العطاء من فصول حياتك انت دون ورثتك

وقـد طالمـا سمعتك تقول متبجحاً : « انني احب ان أعطي ، ولكن المستحقين فقط » .

فهل نسيت ، يا صاح ، ان الاشجار في بستانك لا تقول قولك ، ومثلها القطعان في مراعيك ؟

فهي تعطي لكي تحيا ، لانها اذا لم تعط عرضت حياتهـا للتهلكة .

الحـق أقـــول لك ، ان الرجل الذي استحق ان يقتبل عطية الحياة ويتمتع بأيامه ولياليه ، هو مستحق لكل شيء منك .

والذي استحق ان يشرب من اوقيانوس الحياة يستحق ان يملأ كأسه من جدولك الصغير .

لأنه أي صحراء اعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطية بما فيها من الفضل والمنة ؟

وانت ، من انت حتى ان الناس يجب ان يمزقوا صدورهم ويحسروا القنـــاع عن شهامتهم وعـــزة نفوسهم لكي ترى جدارتهم لعطائك عارية وانفتهم مجردة عن الحياء ؟

فانظر اولاً هـــل انت جدير بأن تكون معطاء ، وآلة للعطاء .

لأن الحياة هي التي تعطي للحياة ، في حين انك ، وانت الفخور بأن قد صدر العطاء منك ، لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك .

* *

امـا انتم الذين يتناولون العطـــاء والاحسان — وكلكم منهم — فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل ، لئـــلا تضعوا بأيـديكم نـيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين اعطوكم .

بل فلتكن عطايا المعطي اجنحة ترتفعون بها معه .

لأنكم إذا اكثرتم من الشعور بما انتم عليه من الدين ، فانكم بذلك تظهرون الشك والريبة في اريحية المحسن الذي امـــه الارض السخية ، وابوه الرب الكريم .

* *

الغـــذاء

وبعد ذلك جاء اليه فندقي شيخ وقال له : هات حدثنا عن المأكل والمشرب .

فأجاب قائلاً :

اود لو انك تقدر ان تعيش ، على عبير الارض ،

تكتفي بالنور كنباتات الهواء .

غير انك مضطر ان تقتل لتعيش ، وان تسرق المولود الصغير من حضن أمه مختطفاً حليبها لتبريد ظمئك .

لذلك فليكن عملك مظهراً من مظاهر العبادة .

ولتكن مائدتك مذبحاً تقرب عليه القرابين النقية الطاهرة من الحقول والسهول ضحية لما هو أكثر منها نقاوة في اعماق الانسان .

* * *

واذا ذبحت حيواناً فقل له في قلبك :

« ان القوة التي أمرت بذبحك ، ستذبحني نظيرك .

« وعندما تحين ساعتي سأحترق مثلك .

« لأن الشريعة التي اسلمتك الى يدي ستسلمني الى يدي من هو أقوى مني .

« وليس دمك ودمي سوى عصارة قد أعدت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء . »

* * *

وإذا نهشت تفاحة بأسنانك فقل لها في قلبك :

« ان بذورك ستعيش في جسدي ،
« والبراعم التي ستخرج منها في الغد ستزهر في قلبي .
« وسيتصاعد عبيرك مع انفاسي ،
« وسأفرح معك في جميع الفصول . »

* * *

وإذا قطفت العنب من كرومك أيام الخريف ، وحملته الى المعصرة ، فقل له في قلبك :

« انا كرمة مثلك ، وستجمع اثماري وتحمل إلى المعصرة، وسيضعونني كالخمر الجديد في زقاق جديدة . »

وعندما تستقي الخمرة من زقاقها في أيام الشتاء ، انشد في قلبك انشودة لكل كأس تشربها .

وليكن لك من أناشيدك اجمل التذكارات لايام الخريف والكرمة والمعصرة .

العمــل

ثم جاء اليه فلاح وقال له : هات حدثنا عــن العمل .

فأجاب قائلا :

إنكم تشتغلون لــكي تجــاروا الأرض ونفس الأرض في سيرها .

لأن الكسول غريب عن فصول الأرض ، وهــائم لا يسير في موكب الحيــاة ، السائرة بعظمة وجــلال في فضاء اللانهاية إلى غير المتناهي .

* * *

فإذا اشتغلت فما انت سوى مزمار تختاج في قلبك مناجاة الأيام فتتحول الى موسيقى خالدة .

ومن منكم يود ان يكون قصبــة خرساء صماء ، وجميع ما حولها يترنم معاً بانغام متفقة ؟

* * *

قد طالما اخبرتم ان العمل لعنة ، والشغل نكبة ومصيبة .

اما انا فاقول لكم انكم بالعمل تحققون جزءاً من حــلم

الأرض البعيد . جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم .

فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة .

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة اعماقها ، وتدنيه من ابعد أسرارها .

* * *

ولكن اذا كنتم وانتم في الآلام تدعون الولادة كآبة ، ودعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم ، فانني الحق أقول لكم انه ما من شيء يستطيع ان يمحو هذه الكتابة ويغسل جباهكم من آثارها سوى سعيكم وجهادكم .

وقد ورثتم عن جدودكم القول ان الحياة ظلمة ، فرحتم في عهد مشقتكم ترددون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون .

فالحق اقول لكم ان الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة .

والحركة تكون عمياء لا بركة فيها ان لم ترافقها المعرفة .

والمعرفة تكون عقيمة سقيمة ان لم يرافقها العمل .

والعمل يكون باطلاً وبلا ثمر ان لم يقترن بالمحبة ، لانكم إذا اشتغلتم بمحبة فانما تربطون انفسكم وافرادكم بعضها ببعض ويرتبط كل واحد منكم بربه .

* * *

وما هو العمل المقرون بالمحبة ؟

هو ان تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكراً ان حبيبك سيرتدي ذلك الرداء .

هو ان تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك واخلاصك مفكراً ان حبيبك سيقطن في ذلك البيت .

هو ان تبذر البذور بدقة وعناية ، وتجمع الحصاد بفرح ولذة كأنك تجمعه لكي يقدم على مائدة حبيبك .

هو ان تضع في كل عمل من اعمالك نسمة من روحك ، وتثق بان جميع الاموات الاطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون .

* * *

وكثيراً ما كنت اسمعكم ، تناجون انفسكم ، كانكم في نوم عميق ، قائلين : « ان الذي يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالاً محسوساً لنفسه في الحجر الاصم هو اشرف من الفلاح الذي يحرث الارض .

« والذي يستعير من قوس قزح الواناً يحول بها قطعة النسيج الحقيرة الى صورة انسان هو افضل من الاسكاف الذي يصنع الاحذية لاقدامنا . »

ولكنني اقول لكم ، لا نوم الليل ، بل في يقظة الظهيرة

البالغة ، ان الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التي تخاطب بها أحقر اعشاب الارض .

والعظيم العظيم انما هو ذلك الذي يحول هينمة الريح الى انشودة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة .

* * *

أجل ، ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة .

فاذا لم تقدر ان تشتغل بمحبة وكنت متضجراً مملولا فالاجدر بك ان تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة .

لانك اذا خبزت خبزاً وانت لا تجد لك لذة في عملك ، فانما انت تخبز خبزاً علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الانسان.

واذا تذمرت وانت تعصر عنبك ، فان تذمرك يدس لك سماً في الخمرة المستقطرة من ذلك العصير .

وان انشدت اناشيد الملائكة ، ولم تحب ان تكون منشداً فانما انت تصم آذان الناس بانغامك عن الاصغاء الى اناشيد الليل واناشيد النهار .

الفرح والترح

ثم قالت له امرأة : هات لنا شذئاً عن الفرح والترح .

فاجاب قائلا :

ان فرحكم هو ترحكم ساخراً

والبئر الواحدة التي تستقون منها ماء ضحككم قد طالما ملئت بسخين دموعكم .

وهل في الإمكان ان يكون الحال على غير هذا المنوال ؟ فكلما أعمل وحش الحزن أنيابه في أجسادكم ؛ تضاعف الفرح في اعماق قلوبكم .

لانه اليست الكأس التي تحفظ خمرتكم هي ذات الكأس التي احرقت في اتون الخزاف قبل ان بلغت اليكم ؟

ام ليست القيثارة التي تزيد في طمأنينة أرواحكم هي نفس الخشب الذي قطع بالمدى والفؤوس ؟

فاذا فرحتم فتأملوا ملياً في اعماق قلوبكم فتجدوا ان ما احزنكم قبلاً يفرحكم الآن .

واذا احاطت بكم جيوش الكآبة فارجعوا ببصائركم ثانية إلى اعماق قلوبكم وتأملوا جيداً . تروا هنالك بالحقيقة انكم تبكون لما كنتم تعتقدون انه غاية مسراتكم على الأرض.

* * *

ويخيل إلي ان فريقاً منكم يقول : « إن الفرح اعظم من الترح » ، فيعارضه فريق آخر قائلا : « كلا » بل الترح أعظم من الفرح » .

أما أنا فالحق أقول لكم : إنهما توأمان لا ينفصلان ، يأتيان معاً ويذهبان معاً ، فاذا جلس أحدهما منفرداً إلى مائدتكم فلا يغرب عن أذهانكم ان رفيقه يكون حينئذ مضطجعاً على اسرتكم .

أجل ، انكم بالحقيقة معلقون ككفتي الميزان بين ترحكم وفرحكم .

وأنتم بينهما متحركون أبداً ، ولا تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين في أعماقكم .

فإذا جاء أمين خزائن الحياة يرفعكم لكي يزن ذهبه وفضته ، فلا ترتفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم ، بل تثبتان على حالة واحدة .

المساكن

حينئذ دنا منه بناء وقال له : هات حدثنا عن البيوت .

فأجاب وقال :

ابن من خيالك مظلة في الصحراء قبل ان تبني بيتاً في داخل أسوار المدينة .

لأنه كما ان لك بيتاً مقبلا في شفق حياتك ، كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك .

ان بيتك هو جسدك الأكبر .

ينمو في حرارة الشمس وينام في سكينة الليل . وكثيراً ما ترافق نومه الأحلام . أفلا يحلم بيتك ؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير الى الغابة أم إلى رأس التلة ؟

اواه لو استطيع ان أجمع بيوتكم بيدي ، فأبددها في الأحراج والرياض كما يبذر الزارع زرعه في الحقول .

اود لو كانت الأودية شوارع لكم ، ومسالك التلال الخضراء أزقة تطرقها أقدامكم عوضاً عن أزقتكم وشوارعكم

القذرة ، ويا ليتكم تنشدون بعضكم بعضاً بين الدوالي والكروم ثم تعودون حاملين عطر الارض في طيات أثوابكم .

ولكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد .

لأن آباءكم وجدودكم إذ خافوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معاً لكي تكونوا قريبين بعضكم من بعض ، وسيبقى هذا الخوف جمعاً لكم زمناً بعد وستظل اسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم ولكن الى حين .

بربكم أخبروني يا أبناء أورفليس ، ماذا تملكون في هذه البيوت ؟ وأي شيء تحتفظون به في داخل الأبواب الموصدة ؟

هل عندكم السلام وهو القوة الصامتة التي تظهر ذاتكم الشديدة العزم المستترة في أعماقكم ؟

هل عندكم التذكارات ، وهي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الانساني بعضها ببعض ؟

هل عندكم الجمال ،الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدس ؟

بربكم أخبروني ، هل عندكم كل هذا في بيوتكم ؟

أم عندكم الرفاهية فقط ،والتحرق للرفاهية المزوج بالطمع ، الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً ، ثم لا تلبث أن تصير مضيفاً ، فسيداً عاتياً عنيفاً ؟

ثم تتحول إلى رائض جبار يتقلد السوط بيمينه والكُلاب بيساره متخذاً رغباتكم الفضلى ألعوبة يتلهى بها .

ومع أن بنان هذه الرفاهية حريري الملمس فإن قلبهـا حديدي صلد .

فهي تهدىء من حدتكم لكي تناموا،ثم تقف أمام أسرتكم هازئة بكم وبجلال أجسادكم .

تضحك من حواسكم المدركة ، وتطرح بها بين الاشواك كأنها أوعية سهلة الانكسار .

لأن التحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كبدها فيرديها قتيلة ، ثم يسير في جنازتها فاغراً شدقيه مرغياً مزبداً .

* * *

أما أنتم يا أبناء الفضاء ، العائشين في الراحة والنعيم وغير المستريحين فإنكم لن تؤخذوا بالاشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم .

لأن بيتكم لن يكون مرساة ولكنه سيكون سارية .

كلا ولن يكون غشاء براقاً تغطى به الجراح ، بل جفناً تحفظ به العين .

وأنتم لن تطووا أجنحتكم لكي تستطيعوا أن تدخلوا من الأبواب ، ولن تحنوا رؤوسكم لئلا تنطح السقف ، كلا ،

ولن تخشوا أن تتنفسوا خوفاً من أن تقوض أساسات الجدران وتسقط على الأرض .

أجل ، ولن تقطنوا في القبور التي بناها ابناء الموت لابناء الحياة .

ومع كل ما يزين منازلكم من الجلال والجمال فانها لن تستطيع ان تحتفظ بسركم او أن تؤاوي حنينكم :

لأن غير المحدود فيكم يقطن في منزل السماء، الذي بوابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده .

الثياب

ثم قال له الحائك : هات حدثنا عن الثياب .

فأجاب قائلاً :

إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ، ولكنها لا تستر غير الجميل .

ومع أنكم تنشدون بثيابكم حرية التستر والانفراد،فانها تقيدكم وتستعبدكم .

ويا ليت في وسعكم ان تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم .

لأن انفاس الحياة في أشعة الشمس ويد الحياة تسير مع مجاري الرياح .

يقول بعضكم : « إن الريح الشمالية دون غيرها قدحاكت الثياب التي نلبسها » .

وأنا أقول لكم . نعم ، إن الريح الشمالية قـــد فعلت ذلك ، ولكن العار كان نولا لها ، ولدونة العضلات كانت لها خيطاً .

وعندما فرغت من عملها ضحكت منكم وهي تعصف في قلب الغاب .

ولكن لا يغرب عن أذهانكم ان الحشمة هي ترس منيع متين للوقاية من عيون المدنسين .

فإذا زال المدنسون من الوجود ، أفلا تصير الحشمة قيداً للفكر وتلويثاً له في حمأة العبودية ؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم ان الأرض تبتهـــج بملامسة أقدامكم العارية ، والرياح تتوق إلى مداعبة شعوركم المسترسلة .

البيع والشراء

ثم دنا منه تاجر وقال له: هات حدثنا عن البيع والشراء.

فأجاب وقال :

ان الأرض تقدم لكم ثمارها ، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لما خبرتم طعم الحاجة في حياتكم .

لانكم بغير مبادلة عطايا الأرض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن يشبع جشعكم .

فيجدر بكم أن تتموا هذه المقايضة بروح المحبة والعدالة ، وإلا فإنها تؤدي بالبعض منكم إلى الشراهة وبغيرهم إلى الطمع والمجاعة .

وإذا ذهبتم إلى ساحة المدينة أيها الدائبون في خدمة البحر والحقول والكروم ، فاجتمعوا بالحاكة والخزافين وجامعي الحنوط والطيوب .

واضرعوا في تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض، أن تحل عليكم وتبارك مقاييسكم وموازينكم ومكاييلكم التي تعينون بها مقدار ما تجري عليه مقايضاتكم .

ولا تأذنوا لذوي الأيدي العقيمة من ذوي البطالة أن يشتركوا في معاملاتكم ، لأنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التي يبيعونها لكم بأعمالكم .

بل قولوا لأمثال هؤلاء :

« تعالوا معنا إلى الحقل أو فاذهبوا مع أولادنا إلى البحر وألقوا هنالك شباككم ،

لأن الأرض والبحر يجـــودان عليكم ، متى عملتم ، كما يجودان علينا . »

* * *

وإن جاءكم المغنون والراقصون والعازفون ، — فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم .

لأنهم يجمعون الأثمار والعطور نظيركم، ومع أن ما يقدمونه لكم مصنوع من مادة الأحلام فإنه أجمل كساء وأفضل غذاء لنفوسكم .

* * *

وقبل أن تبرحوا ساحة المدينة أنظروا ألا ينصرف أحد منها فارغ اليدين .

لأن الروح السيدة في الأرض لا تنام بطمأنينة وسلام على تموجات الرياح حتى تشاهد بعينيها أن الصغير فيكم ، قد نال كالكبير بينكم ، كل ما هو في حاجة إليه .

الجرائم والعقوبات

حينئذ وقف أحد قضاة المدينة وقال له : هات لنا خطبة في الجرائم والعقوبات .

فأجاب وقال :

عندما تسير أرواحكم هائمة فوق الرياح ،

وتمسون منفردين ، ليس لكم من يقيكم طوارىء السوء ،

حينئذ تقترفون الاثم ضد غيركم وضد أنفسكم .

ولأجل ذلك الاثم الذي تقترفونه يجب أن تقرعوا برهة وتنتظروا على بوابة القدوس .

* * *

فان ذاتكم الالهية بحر عظيم ،

كانت نقية منذ الأزل وستظل نقية إلى آخر الدهور .

وهي كالأثير لا ترفع إلا ذوي الأجنحة .

أجـــل ، إن ذاتكم الالهية كالشمس ، لا تعرف طرق

المناجذ [١] ، ولا تعبأ بأوكار الأفاعي .

غير أنها لا تقطن وحيدة في كيانكم .

لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً ، وكثيراً غيره لم يصر بشراً بعد ، بل هو مسخٌ لا صورة له يسير غافلاً في الضباب وهو ينشد عهد يقظته .

فلا أود أن أحدثكم الآن إلا عن هذا الانسان فيكم .

لأن هذا الانسان — دون ذاتكم الالهية ، ودون المسخ الهائم في الضباب هو الذي يعرف الجرائم والعقوبات على الجرائم في كيانكم .

* * *

طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف إثماً ، كأنه ليس منكم ، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم .

ولكنني الحق أقول لكم ، كما ان القديس والبارّ لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعة التي في كل منكم .

هكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا الى أدنى من الذات الدنيئة التي في كل واحد منكم .

وكما ان ورقة الشجر الصغيرة لا تستطيع أن تحول لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة في أعماقها .

---

(١) مناجذ : جمع خلد ، من غير لفظه .

هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفية ومعرفتكم التي في قلوبكم . لأنكم تسيرون معاً في موكب واحد إلى ذاتكم الالهية .

أنتم الطريق وأنتم المطرقون .

فاذا عثر أحدٌ منكم فإنما تكون عثرته عبرة للقادمين وراءه فيجتنبون الحجر الذي عثر به .

أجل ، وتكون عثرته توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنهم لم يرفعوا حجر العثار من طريقه .

وإليكم يا أبناء أورفليس هذه الكلمة التي ، وإن حلت ثقيلة على قلوبكم ، فهي الحقيقة بعينها :

ان القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل .

وليس المسروق بلا لوم في سرقته .

ولا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير ،

ولا الطاهر النقيُّ اليدين بريء الذمة من قذارة المدنسين .

كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه ،

كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التي كان يجب أن يحملها المبررين وغير الحاكمين .

لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حداً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الأبرياء والمذنبين :

لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس ، كما ان الخيط الأبيض والخيط الأسود يُنسجان معاً في نولٍ واحد ،

فإذا انقطع الخيط الأسود ، ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ، ثم يرجع الى نوله ويفحصه وينظفه .

* * *

لذلك إذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة ، فليزن أولاً قلب زوجها بالموازين ، وليقس نفسه بالمقاييس ذاتها ،

وكل من شاء ان يلطم المجرم بيمينه ، يجدر به أولاً أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح مَنْ أوقع الجرم عليه .

وإن رغب أحد منكم في أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة ، فلينظر أولاً إلى أعماق جذورها .

وهو ولا شك واجدٌ أن جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة المثمرة ، وغير المثمرة ، كلها مشتبكة معاً في قلب الأرض الصامت .

أما أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبراراً ، أي نوع من الأحكام تصدرون على الرجل الأمين بجسده السارق بروحه ؟

أم أيّ عقاب تنزلون بذلك الذي يقتل الجسد مرة ، ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة ؟

وكيف تطاردون الرجل ، الذي مع انه خداعٌ ظالم بأعماله ، فهو موجع القلب ، ذليل ، مهان بروحه ؟

* * *

أجل ، كيف تستطيعون أن تعاقبوا الذين لهم من توبيخ ضمائرهم ، وهو أعظم وأثقل من جرائمهم ، أكبر قصاص على الأرض ؟

أليس توبيخ الضمير هو نفس العدالة التي تتوخاها الشريعة التي تتظاهرون بخدمتها ؟

فأنتم لا تستطيعون أن تسكبوا باسم توبيخ الضمير في قلوب الأبرياء ، كما انكم لا تقدرون ان تنزعوه من قلوب الأشقياء .

فهو يأتي لذاته في ساعة من الليل لا ننتظرها ؛ داعياً الناس إلى النهوض من غفلتهم ، والتأمل في حياتهم وما فيها من التعديلات والمخالفات .

وأنتم ، أيها الراغبون في سبر غور العدالة ، كيف تقدرون أن تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة في النور الكامل .

في مثل هذا النور تعرفون ، أن الرجل المنتصب والرجل المنبطح على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد ، وقف في الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهية ،

وأن حجر الزاوية في الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذي في أسفل أساساته .

الشرائع

ثم قال له متشرع ، وماذا تعتقد في شرائعنا أيها المعلم ؟
فأجاب قائلاً :
انكم تستلذون أن تضعوا شرائع لانفسكم ،
بيد أنكم تستلذون بالأكثر أن تكسروها وتتعدوا فرائضها.
لذلك أنتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطىء – يبنون ابراجاً عظيمة من الرمـــل بصبر وثبات ، ثم لا يلبثون أن يهدموها ضاحكين صاخبين .
فعندما تبنون أبراجكم الرملية ، يأتي البحر برمال جديدة إلى الشاطىء .
وعندما تهدمون أبراجكم ، يضحك البحر منكم في نفسه لأن البحر يضحك من الأبرياء أبداً .

* * *

ولكن ماذا أقول في من ليست الحياة بحراً في عقيدتهم ، بل ليست الشرائع التي تسنها حكمة الانسان البالغة أبراجـاً من الرمال فقط !

أولئك هم الذين يحسبون ان الحياة صخرة صلدة ، وأن الشريعه إزميلٌ حاد يأخذونه بأيديهم لكي ينحتوا هـــذه الصخرة على صورتهم ومثالهم !

وماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين ؟

وفي الثور الذي يحب نيرهُ ، ويتهم الوعل والإيل والظبي أنها حيوانات متمردة ناشزة .

وفي الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها ، ولذلك تنبري متهمة جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء ؟

وفي ذلك الذي يسبق غيره إلى وليمة العرس ، وعندمـا يملأ جوفه من الأطعمة ، ويبلغ حده من النهم والشراهة ، يترك الوليمة ويذهب في طريقه قائلاً ان جميع الولائم مخالفات للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدُّو الشريعة ؟

ماذا أقولَ في أمثال هؤلاء ؟ انهم كجميع الناس يقفون في أشعة الشمس ، ولكنهم يولون الشمس ظهورهم ؟

فهم لذلك لا ينظرون سوى أظلالهم ، وأظلالهم هي عند التحقيق شرائعهم المقدسة .

وهل الشمس في اعتقادهم سوى منشإ الظلال ؟

وهل اعترافهم بالشريعة سوى أنهم ينحنون ويطأطئون رؤوسهم لكي يستقصوا أظلالهم على الأرض ؟

أما أنتم الذين يمشون وهم يحدقون في الشمس بأجفان غير مرتعشة ، فهل في الأرض من صورة تستطيع أن تستوقفكم هنيهـة ؟

وأنتم ، المسافرون مع الريح ، أية دوّارة من التي تدل على اتجاه الرياح تقدر أن ترشدكم في مسالككم ؟

وما هي الشريعة البشرية التي تقيدكم إذا كنتم لم تحطموا غيركم على باب سجن من سجون الانسان .

وأية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون ولكنكم لا تتعثرون بقيد من قيود العالم الحديدية ؟

ومن هو الرجل الذي يستطيع أن يأتي بكم إلى المحاكمة إذا مزقتم أثوابكم ولكنكم لم تضعوها في طريق أحد من الناس ؟

* * *

أجل يا أبناء أورفليس . انكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل ، وتحلوا أوتار القيثارة ، ولكن مَنْ مِنْ أبناء الانسان يستطيع أن يأمر قنبرة السماء أن تكفّ عن الغناء ؟

الحرية

ثم قال له خطيب : هات حدثنا عن الحرية ؟

فأجاب قائلاً :

طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة وإلى جوانب المواقد تعبدون حريتكم .

وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمـــام سيدهم العسوف الجبار ، يمدحونه وينشدون له وهو يعمل السيف في رقابهم .

نعم ، وفي غابة الهيكل ، وظل القلعة ، كثيراً ما رأيت أشدكم حرية يحمل حريته كنير ثقيل لعنقه ، وغـــل متين ليديه ورجليه .

رأيت كل هـــذا فذاب قلبي في أعماق صدري ، ونزفت دماؤه ، لأنكم لا تستطيعون أن تصيروا أحراراً حتى تتحول رغبتكم في السعي وراء الحرية إلى سلاح تتسلحون به . وتنقطعوا عن التحدث بالحرية كغايتكم ومحجتكم .

انكم تصيرون أحراراً بالحقيقة إذ لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونه ، ولياليكم بلا حاجة تفكرون فيهـــا ، أو كآبة تتألمون لذكراها .

بل تكونون أحراراً عندما تمنطق هموم الحياة وأعمالها أحقاءكم بمنطقة الجهاد والعمل ، وتثقل كاهلكم بالمصاعب والمصائب ، ولكنكم تنهضون من تحت أثقالها عراة طليقين.

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم ولياليكم ، إذا لم تحطموا السلاسل، التي أنتم أنفسكم في فجر ادراككم ، قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرّة ؟

ألا ان ما تسمونه حرية انما هو بالحقيقة اشد هذه السلاسل قوة ، وان كانت حلقاته تلمع في نور الشمس وتخطف أبصاركم.

وماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكي تصيروا احراراً سوى كِسَر صغيرة رثة في ذاتكم البالية ؟

فان كانت هذه الكسر شريعة جائرة وَجبَ نسخها ، لأنها شريعة سطرتها يمينكم وحفرتها على جبينكم .

بيد أنكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم باحراق كتب الشريعة التي في دواوينكم ، كلا ، ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم ، ولو سكبتم عليها كل ما في البحار من المياه .

وان كانت طاغية تودون خلعهُ عن عرشه . فانظروا أولاً ان عرشهُ القائم في اعماقكم قد تهدّم .

لانه كيف يستطيع طاغية أن يحكم الاحرار الفخورين ، ما لم يكن الطغيان أساسا لحريتهم والعار قاعدة لفخرهم ؟

وإن كانت همّاً ترغبون في التخلص منه ، فان ذلك الهمّ انما انتم اخترتموه لانفسكم ، ولم يفرضه أحد عليكم .

وان كانت خوفاً تريدون طردَه عنكم ، فان جرثومة هذا الخوف مغروسة في صميم قلوبكم ، وليست في يدي مَنْ أوْ ما تخافون .

* * *

الحق أقول لكم ، أن جميع الأشياء تتحرك في كيانكم متعانقة على الدوام عناقاً نصفياً . كل ما تشتهون وما تخافون. ما تتعشقون ومـا تستكرهون ، ما تسعون وراءه وما تهربون منه .

جميع هذهِ الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار والأظلال .

فإذا اضمحل الظل ولم يبق له أثر ، أمسى النور المتلألىء ظلا لنور آخر سواه .

وهكذا الحال في حريتكم ، إذا حلت قيودها أمستْ هي نفسها قيداً لحرية أعظم منها .

العقل والعاطفة

ثم طلبت اليه العرافة ثانية قائلة : هات حدثنا عن العقل والعاطفة .

فأجاب وقال :

كثيراً ما تكون نفوسكم ميداناً تسير فيه عقولكم ومداركم حرباً عواناً على أهوائكم وشهواتكم

وكنت أود أن أكون صانع سلام في نفوسكم .

فأحول ما فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام .

ولكن أنـّى يكون لي ذلك ، إذا لم تصيروا أنتم صانعي سلام لنفوسكم ، ومحبين لجميع عناصركم بالسوية ؟

ان العقل والعاطفة هما سكان [1] النفس وشراعها وهي سائرة في بحر هذا العالم .

فاذا انكسر سكان النفس أو تمزق شراعها فانها لاتستطيع أن تتابع سيرها مطمئنة ، بل انها إما أن ترغم على الاستسلام إلى الأمواج تلاطمها وتتقاذفها يمنة ويسرة ، أو تلقي مرساتها فتقف ساكنة عديمة الحركة في وسط البحر .

(١) سكان السفينة ما يعرف بالدفة .

لأن العقل إذا استقل بالسلطان على الجسد قيد عواطفه ، كما أن العاطفة إذا لم يرافقها العقل كانت لهيباً يتأجج ليفنيها .

فاجعل نفسك تسمو بعقلك إلى مستوى عواطفك، وحينئذ ترى منها ما يطربك ويشرح لك صدرك .

وليكن لك من عقلك دليلاً وقائداً لعواطفك، لكي تعيش في كل يوم بعد موتها وتنهض كالعنقاء[1] متسامية فوق رمادها .

وأرغب اليكم أن تساووا بين العقل والعاطفة كما تساورون بين ضيفين عزيزين عليكم .

فانكم ، ولا شك ، لا تكرمون الواحد أكثر من الثاني، لان الذي يعتني بالواحد ويهمل الآخر يخسر محبة الاثنين وثقتهما .

* * *

واذا جلستم في ظلال الحور الوارفة . بين التلال الجميلة ، تشاطرون الحقول والمروج البعيدة سلامها وسكينتها وصفاءها ، — فقولوا حينئذ في قلوبكم : « ان الله يستريح في العقل » .

(١) العنقاء مؤنث أعنق ، وهو طائر معروف باسمه مجهول بجسمه . وفي الخرافات المصرية أنه طائر مقدس كان يأتي من بلاد العرب مرة في كل سنة الى هليوبوليس فيحرق نفسه على المذبح ثم لا يلبث ان ينهض من وسط الرماد المحترق حياً جميلاً كما كان ، ولذلك كان عندهم رمزاً الى الخلود .

(المترجم)

وعندما تعصف العاصفة ، وتزعزع الرياح أصول الاشجار في الاحراج ، وتعلن الرعود والبروق عظمة السماوات ، — فقولوا حينئذ في أعماق قلوبكم ، متهيبين خاشعين : « ان الله يتحرك في الأهواء » .

وما دمتم نسمة من روح الله ، وورقة في شجرته ، فأنتم أيضاً يجب أن تستريحوا في العقل ، وتتحركوا في العواطف .

الألم

ثم نهضت من بين الجمع امرأة وقالت له : هات حدثنا عن الألم .

فأجاب وقال :

ان ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم .

وكما أن قشرة النواة الصلدة يجب ان تتحطم وتبلى حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض الى نور الشمس .

هكذا أنتم أيضاً يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى الحياة .

لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقها من التأمل والتفكير ، لما كنتم ترون آلامكم أقل غرابة من أفراحكم .

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم ، كما قد قبلتم في مدى حياتكم الفصول التي مرت على حقولكم .

وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون في شتاء أحزانكم وآلامكم .

* * *

أنتم مخيرون في الكثير من آلامكم .

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة .

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي ، وتناولوا جرعته المرة بسكينة وطمأنينة .

لأن يمينه ، وان بدت لكم ثقيلة قاسية ، فهي تتحرك مقودة بيد غير المنظور اللطيفة .

والكأس التي يقدمها اليكم ، وان أحرقت شفاهكم ، فهي مصنوعة من الطين الذي جبلته يدا الخزاف الازلي بدموعه المقدسة .

معرفة النفس

ثم قال له رجل : هات حدثنا عن معرفة النفس .

فأجاب قائلاً :

ان قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام والليالي .

ولكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم .

غير انكم تودون لو تعرفون بالالفاظ والعبارات ماتعلمونه بالأفكار والتأملات .

وتتوقون إلى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العاري .

* * *

وحسن انكم تتوقون الى جميع ذلك .

فان الينبوع الكامن في أعماق نفوسكم سيتفجر يوماً مـا ويجري منحدراً الى البحر .

والكنز المطمور في اعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعة لا تعلمونها وتفتح ابوابه أمام عيونكم .

ولكن حذار أن تأخذوا منكم موازينكم لكي تزنوا بها كنزكم غير المعروف .

كلا ، ولا تسبروا غور معرفتكم بالمُردي[١] القاسي أو المِرجاس[٢] الليّن .

لأن الذات بحر واسع لا حدّ ولا قياس له .

* * *

أجل ، ولا تقل في ذاتك : « قد وجدت الحق » بل قل بالأحرى : « قد وجدت حقاً » .

ولا تقل « قد وجدت طريق النفس » بل قـــل بالأولى « قد رأيت النفس تمشي في طريقي » .

لأن النفس تمشي على جميع المسالك والطرق .

النفس لا تمشي على حبل أو خيط ، كلا ، ولا هي تنمو كالقصبة .

النفس تتفتّح كزهرة اليشنين[٣] ذات البتـــلات التي لا يحصى عديدها .

---

(١) المردي : خشبة تدفع بها السفينة أو يسبر بها الغور .
(٢) المرجاس : حجر يشد في حبل ويدلى في الماء ليعلم عمقه .
(٣) اليشنين: نبات يقوم على ساق ولا ورق له. ويسميه المصريون عرائس النيـــل .

التعليم

ثم قال له معلم : هات لنا كلمة في التعليم ؛

فقال :

ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئاً غير ما هو مستقر في فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنه .

أما المعلم الذي يسير في ظل الهيكل ، محاطاً بأتباعه ومريديه ، فهو لا يعطي شيئاً من حكمته ، بل انما يعطي من إيمانه وعطفه ومحبته .

لأنه إذا كان بالحقيقة حكيماً ، فإنه لا يأمركم بأن تدخلوا بيت حكمته ،بل بالأحرى يقودكم إلى عتبة فكركم وحكمتكم .

فإن الفلكي يستطيع أن يسرد لكم شيئاً من معرفته لنظام السماء وأجرامه ، ولكنه لا يقدر أن يعطيكم معرفته .

والموسيقي يستطيع أن ينشدكم أجمل ما في العالم من الأناشيد والأنغام ، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم الأذن التي تضبط النظام في النغم ، ولا الصوت الذي يوجد الالفة في الألحان .

والرياضي النابغ في ضبط الارقام يستطيع أن يخبركم عن حدود الموازين والمقاييس وأصقاعها وخصائص كل منهـا ، ولكنه لا يستطيع أن يقودكم إلى مجاهلها .

لأن الوحي الذي يهبط على رجل ما لا يعير جناحيه لغيره .

وكما ان لكل منكم مقاماً منفرداً في معرفة الله إياه ، هكذا يجب عليه أن يكون منفرداً في معرفته لله ، وفي إدراكه لأسرار الأرض .

الصداقـــة

ثم قال له شابٌ هات حدثنا عن الصداقة .

فأجاب وقال :

أن صديقك هو كفاية حاجاتك .

هو حقك الذي تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكر .

هو مائدتك وموقدك .

لأنك تأتي إليه جائعاً ، وتسعى وراءه مستدفئاً .

* * *

فإذا أوضح لك صديقك فكره فلا تخشَ أن تصرح بما في فكرك من النفي ، أو أن تحتفظ بما في ذهنك من الإيجاب .

وإذا صمت صديقك ولم يتكلم ، فلا ينقطع قلبـــك عن الإصغاء إلى صوت قلبه —

لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات في انماء جميع الأفـكار والرغبات والتمنيات التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعات

وإن فارقت صد قك ، فلا تحزن على فراقه —

لأن ما تتعشقه فيه ، أكثر من كل شيء سواه ، قـــد

يكون في حين غيابه أوضح في عيـــني محبتك منه في حين حضوره ، لأن الجبـــل يبدو لمن ينظر إليه من السهل أكثر وضوحاً مما يظهر لمن يتسلقه .

ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم .

لأن المحبـــة التي لا رجـــاء لها سوى كشف الغطاء عن أسرارها ، ليست محبة ، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك غير النافع .

* * *

وليكن أفضل ما عندك لصديقك .

فإن كان يجدر به أن يعرف جزْر حياتك .

فالأجدر بك أيضاً أن تظهر له مدها .

وما قيمة صديقك الذي لا تطلبه إلا لتقضي معه ما تريد أن تقتله من وقتك ؟

إنشدْ صديقك دائماً لما تحييه من ساعاتك ،

لأن له وحده قد أعطي أن يكمل حاجاتك ، لا لفراغك ويبوستك .

وليكن ملاك الأفراح واللذات المتبادلة مرفرفاً فوق حلاوة الصداقة .

لأن القلب يجد صباحه في الندى العالق بالأشياء الصغيرة ، فينتعش ويستعيد قوته .

الحديث

ثم قال له عالمٌ هات حدثنا عن الكلام .

فأجاب وقال :

انكم تتكلمون عندما توصد دونكم أبواب السلام مع أفكاركم .

وعندما تعجزون عن السكنى في وحدة قلوبكم، تقطنون في شفاهكم . والصوت يلهيكم ويسليكم .

وفي الكثير من كلامكم يكاد فكركم يقضي ألماً وكآبة .

لأنّ الفكر طائرٌ من طيور الفضاء ، يمكنه أن يبسط جناحيه في قفص الألفاظ ولكنه لا يستطيع أن يطير .

ان بينكم قوماً يقصدون الثرثار المهذار ، ضجراً من الوحدة والانفراد .

لأن سكينة الوحدة تبسط أمام عيونهم صورة واضحة لذواتهم العارية ، يرتعدون لدى رؤيتها فيهربون منها :

ومنكم الذين يتكلمون ، ولكنهم عن غير معرفة ، وبدون سابق قصد ، يظهرون حقيقة لا يدركونها هم أنفسهم.

ومنكم الذين أودع الحقُّ في قلوبهم ، ولكنهم يأبون أن يلبسوه حُلّة اللفظ .

وفي أحضان هؤلاء تقطن الروح في هدوء وسكون

* * *

فإذا رأيت صديقك على جـــادة الطريق ، أو جمعتك به ساحة المدينة ، فدع الروح التي فيك تحرك شفتيك وتدير لسانك .

أفسح المجـــال للصوت الذي في أعماق صوتك ليخاطب أذن أذنه .

لأن نفسه تحتفظ بسرّ قلبك ، كما يتذكر الفم طعم الخمرة الطيبة وإن نسي الفكر لونها وتحطمت الكأس التي حملتها .

الزمــــان

ثم قال له فلكي : أيها المعلم ، ما قولك في الزمان ؟
فأجابه قائلاً :
أنت تريد أن تقيس الزمان غير المحدود الذي لا قياس له.
وتود أن تطبق سلوكك وتعين مسالك روحك على مقتضى الساعات والفصول .
بل أنت تريد أن تجعل الزمان جدولاً تجلس إلى حافته وتراقب انسجام مياهه وتصغي إلى خريرها .

. . . .

بيد أن غير المقيد فيك بالزمان يعرف حقيقة أن الحياة لا تعرف حدود الزمان .
وأنَّ ليسَ أمسِ سوى ذكرى اليوم ، وليس الغد سوى حلم اليوم .
وأن القوة الــتي تترنم وتتأمل فيك لا تزال قاطنة ضمن حدود تلك اللحظة الأولى التي فرّقت الكواكب في الفضاء .
وهل بينكم رجلٌ لا يشعر أن قوته على المحبة هي قوة تفوق الحدود ؟

بل من هـو الذي لا يشعر بتلك المحبة ، غـير المحدودة ، المحصورة في صميم كيانه ، ولا ينتقل من فكر محبـة الى فكر محبة اخرى ، ومن اعمال محبة إلى أعمال محبة غيرها ؟

والزمان ، أليس الزمان كالمحبة ، لا ينقسم ولا يستقصى ؟

* * *

ولكن إذا شئتم أن تقسموا الزمان إلى فصول مختلفة في افـكاركم ، فاجعـلوا كل فصل من فصـوله يحيط بجميـع الفصول الأخرى ،

واجعلوا الحاضر يعانق الماضي بالتذكارات ، والمستقبل بالحنين والتشوقات .

الخير والشر

ثم قال له أحد شيوخ المدينة : هات حدثنا عن الخير والشر .

فأجاب قائلا :

انني أستطيع ان أحدثكم عن الخير الذي فيكم ، دون الشر .

لانه ، أليس الشر هو بعينه الخير المعذّب من جرّاء تعطشه ومجاعته ؟

فإني الحق اقول لكم ، ان الخير إذا جاع سعى إلى الطعام ولو في الكهوف المظلمة ، وان عطش فانه يشرب حتى من المياه الراكدة المنتنة .

* * *

أنت صالح ، يا صاح ، إذا كنت واحداً مع ذاتك .

وإذا لم تك واحداً مع ذاتك فأنت لست بالشرير .

لأن البيت المنقسم على ذاته ليس مغارة للصوص ، ولكنه بيتٌ منقسم على ذاته ، لا أكثر ولا أقل .

والسفينة التي لا سكان لها تهيم في البحار بين الجزائر ، تحدق بها الأخطار من كل جهة ولكنها لا تغرق إلى قعر البحر .

* * *

أنت صالح ، يا صاح ، إذا جاهدت لكي تعطي الناس من ذاتك ،

ولكنك لست بالشرير إذا سعيت وراء منفعة نفسك .

لأنك في سعيك وراء منفعة نفسك تشبه جذر الشجرة الذي يلتصق بالأرض لكي يمتص الحليب من ثديها .

الحق أقول لك : ان الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: « كن مثلي ناضجاً ، جميلاً ، جوّاداً ، يبذل كل ما فيه لأجل غيره — » .

لأن العطاء حاجة من حاجات الثمرة التي لا تعيش بدونها، كما ان الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا تحيى بغيرها.

* * *

أنت صالحٌ ، يا صاح ، إذا كنت تبلغ إلى كمال يقظتك في خطابك ،

بيد انك لستَ بالشرير إذا نمت وكان لسانك يهذر من غير مرمى .

لأن الكلام ، وإن كان مجلبة للعثرات ، لا بد أن يشدد لساناً ضعيفاً .

* * *

أنت صالح ، يا صاح ، إذا كنت تسير إلى محجتك ، راسخ العزم ، جريء الخطى .

غير انك لست بالشرير ،إذا كنت تمشي إلى محجتك متلكئاً.

لأن العرج أنفسهم لا يسيرون إلى الوراء .

ولكنك ، وانت صحيح القدم قوي الجسد ، ألفظر ألا تعرج أمام العُرج وأنت تحسب ذلك رقة وشفقة .

* * *

أنت صالح بطرق عديدة يا صاح ، وإذا لم تكن صالحاً فإنك لست بالشرير ،

بل أنت كسولٌ متراخ .

ويا ليت الظباء تستطيع أن تعلم السلاحف البطيئة السرعة والرشاقة .

* * *

أجل ، ان الخير الذي فيك انما هو في حنينك الى ذاتك الجبارة ، وهذا الحنين فيكم جميعكم .

غير أنه يشبه في البعض منكم سيلا جارفاً يجري بقوة منحدراً إلى البحر ، فيحمل معه أسرار التلال والأودية وأناشيد الأحراج والجنان .

وهو في غيرهم أشبه بجدول صغير يسير في منبسط من الأرض يريق ماءهُ في الزوايا والمنعرجات ، ولذلك يطول به الزمان قبل أن يصل إلى الشاطىء .

ولكن لا يقلْ ذو الحنين الكثير إلى ذي الحنين القليل : « لماذا أنت كسيحٌ بطيء ؟ »

لأن الصالح الصالح لا يسألُ العراة : « اين ثيابكم ؟ » ولا الغرباء : « أين منازلكم ؟ »

الصـــلاة

ثم قالت له الكاهنة : هات حدثنا عن الصلاة .

فأجاب وقال :

انك تصلين في ضيقتك وعند حاجتك :

ولكن حبذا لو أنك تصلين وأنتِ في كمال فرحك . روفرة خيراتك .

* * *

وهل الصلاة غير تمدّد ذاتك في الأثير الحيّ ؟ .

فإذا كنت تتعزين في أن تسكبي كأس ظلمتك في الفضاء فانك ولا شك تفرحين أيضاً في أن تسكبي فيه فجر فؤادك . وإذا كنت لا تستطيعين أن تمسكي عن البكاء عنـــدما تدعوك نفسك إلى الصلاة ، فالأجدر بنفسك ان تنخسك منخس حاد مرة بعد مرة ، على رغم الدموع المتساقطة على وجنتيك ، لكي تأتي إلى الصلاة فرحةً باسمة .

وإذا صليت ، فأنت ترتفعين بروحك لكي تجتمعي في تلك الساعة بأرواح المصلين ، الذين لا تستطيعين أن تجتمعي بهم بغير الصلاة .

لذلك فلتكن زيارتك لذلك الهيكل غير المنظور مدعاة للهيام السماوي والشركة الروحية السعيدة .

لأنك إذا دخلت الهيكل ولا غاية لك سوى السؤال ، فانك لن تنالي شيئاً .

وان دخلت الهيكل لكي تظهري وفرة لتضاعك وخشوعك ، فانك لن تجدي رفعة .

بل ، لو جئت الهيكل وأنت ترجين أن تلتمسي خيراً لغيرك من الناس فانك لن تجابي إلى سؤالك .

لأنه يكفيك أن تدخلي الهيكل من غير أن يراك أحد .

• • •

لا أستطيع أن أعلمك الصلاة بالألفاظ .

لأن الله لا يصغي إلى كلماتك ما لم يضعها تعالى اسمه على شفتيك وينطق بها بلسانك .

ولا أقدر أن أعلمك صلاة البحار والأحراج والجبال .

بيد أنك ، وانت ابنة الجبال والأحراج والبحار .

تستطيعين أن تجدي هذه الصلاة محفورة على صفحات قلبك .

فإذا اصغيت في سكينة الليل سمعت الجبـــال والبحار والأحراج تصلي بهدوء وخشوع قائلة :

« ربنا وإلهنا ، يا ذاتنا المجنّحة ،

« انما بارادتك نريد ،

« برغبتك نرغب ونشتهي ،

« بقدرتك تحول ليالينا ، وهي لك ، إلى ايام هي لك أيضاً .

« اننا لا نستطيع أن نلتمس منك حاجةً .

« لأنك تعرف حاجاتنا قبل أن تولد في أعماقنا .

« أنت حاجتنا ، وكلمـــا زدتنا من ذاتك ، زدتنا من كل شيء » .

اللذة

حينئذ دنا منه ناسك يزور المدينة مرةً في السنة ، وقال له : هات حدثنا عن اللذة .

فأجاب وقال :

اللذة أنشودة الحرية ،

لكنها ليست حرية بذاتها .

اللذة زهرة رغباتكم ،

ولكنها ليست ثمرة لها .

اللذة عمق ينشد علواً ،

ولكن لا هي بالعمق ولا هي بالعلو .

اللذة طائرٌ قد أفلت من قفصة ،

ولكنها ليست فضاءً حراً طليقاً .

أجل ، ان اللذة بالحقيقة أنشودة الحرية

وانه ليطربني أن تترنموا بها في أعماق قلوبكم ، ولكني لا اذن لكم أن تستسلموا بقلوبكم للغناء

ان فريقاً من احداثكم يسعون وراء اللذة سعيهم وراء كل شيء ، ولذلك يحكم عليهم بالقصاص والتأديب .

أما أنا فلا أدينهم ، ولا أحكم عليهم ؛ ولكنني أسألهم أن يفتشوا وينقبوا .

لأنهم سيجدون اللذة في تفتيشهم ، ولكنهم لن يجدوها وحدها فقط .

فان لها سبع شقيقات ، أحقرهن أوفر جمالاً منها .

وأنتم ألم تسمعوا بذلك الرجل الذي كان يحفر الأرض لكي يستخرج الجذور من اعماقها فوجد كنزاً عظيماً ؟ .

. . .

وفريق آخر من شيوخكم يتذكرون لذّات شبابهم آسفين، كأنما هي جرائم اقترفوها في أوقات السكر والجهالة .

ولكن الأسف هو بالحقيقة غمامة تغمّ الفكر ولا تؤدبه ، ولذلك يجدر بهم أن يتذكروا لذاتهم بالحمد والشكر كما يتذكرون حصاد الصيف .

ولكن إذا كان الأسف يعزيهم فلا بأس أن يتعزوا به .

. . .

وهنالك فريق ثالث ، ممن ليسوا بالأحداث لكي يجاهدوا مفتشين عن لذات جديدة ، ولا بالشيوخ لكي يتذكروا لذات شبابهم ،

ولكنهم ، لشدة خوفهم من عناء الجهاد في التفتيش ، والألم في التذكارات ، يعرضون عن جميع اللذات ، لئلا يهملوا الروح أو يسيئوا اليها .

غير أن لهم من الإعراض بعينه لذة لأنفسهم .

ولذلك فهم أيضاً يجدون كنزاً لذواتهم مع انهم يحفرون لأجل الجذور بأيد مرتعشة .

ولكن هل لك أن تخبرني ، وأنت الناسك الحكيم ، من هو الذي يستطيع أن يكدّر على الروح صفوها ؟

أيستطيع البلبل أن يعكر صفو سكينة الليل ، أم الحباحب نورَ الكواكب ؟

وهل يقدر لهيب نارك أو دخانها أن يثقل كاهل الريح ؟

أم هل تعتقد أن الروح بركة ساكنة وفي استطاعتك كلما خطر لك أن تزعج هدوءها بعصاك ؟

. . .

كلما أنكرت على ذاتك التمتع بلذة ما تغلق بيديك على تلك اللذة في مستودعات كيانك .

ومن يدري ، هل تعود اللذة التي تهملها اليوم فتترقب عودتك اليها في الغد ؟

لأن جسدك يعرف حاجاته الضرورية وميراثه الحقيقي فلا يستطيع أحد أن يخدعه .

أجل ، إن جسدك هو قيثارة نفسك

وأنت وحدك تستطيـع أن تخرج منها أنغامـاً فتانة أو أصواتاً مشوشة مضطربة

ولعلك تسأل في قلبك قائلا : « كيف نستطيـع ان نميز بين الصالح والشرير من اللذات » ؟

إذاً فاذهب إلى الحقول والبساتين وهنالك تتعـلم أن لذة النحلة قائمة في امتصاص العسل من الزهرة .

وكذلك لذة الزهرة تقوم بتقديم عسلها للنحلة .

والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة ،

والزهرة تؤمن بأن النحلة هي رسول المحبة المحيية ،

والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبال اللذة وتقديمها حاجتان لا بد منهما وافتتان لا غنى للحياة عنه .

. . .

أجل ، يا أبنـاء أورفليس ، كونوا في لذاتـكم كالنحل والأزهار .

الجمــال

ثم قال له شاعرٌ : هات لنا شيئاً عن الجمال .

فأجابه قائلاً :

أين تفتش على الجمال وكيف تقدر أن تهتدي اليه ما لم يكن هو نفسه طريقاً لك وهادياً ؟

وكيف تستطيــع أن تتحدث عن الجمال ما لم ينسج لك ثوباً لائقاً لخطابك ؟

فالحزين أو المتألم يقول ، « الجمال رقة ولطف ، وهو يمشي بيننا كالأم الفتية الحييّة من جلالها » .

والغضوب يقول ، « كلا ، بل الجمال قوة وبطش ، فهو كالعاصفة يهز الأرض تحت أقدامنا والسماء فوق رؤوسنا » .

والتعِبُ الملولُ يقول ، « ان الجمــال لطيف المناجاة ، يتكلم في أرواحنا . ويتموج صوته في سكون أذهاننـــا ، كما يرتعش النور الضئيل خوفاً من الظل الظليل »

غير ان القلق المضطرب يقول : « قد سمعنا الجمال يصيح بأعلى صوته بين الجبال »

ويرافق صوته وقع الحوافر ، وخفقان الاجنحة وزمجرة الأسود » .

. . .

وعند انتصاف الليل يقول حارس المدينة : سيبزغ الجمال مع الفجر من المشرق » .

وعند الظهيرة يقول العمال وعابرو السبيل : « قد رأينا الجمال يطل على الأرض من نوافذ المغرب » .

* * *

وفي الشتاء يقول جامعو الثلوج : «سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال» .

وفي الصيف يقول الحصادون : «قد رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف ، وشاهدنا كومة من الثلج فوق شعره » .

كل هذا سمعتكم تقولونه في الجمال .

غير انكم بالحقيقة لم تقولوا فيه كلمة، وانما تحدثتم بحاجاتكم غير المكملة ، والجمال ليس بالحاجة غير المكملة ، بل هو انشغاف وافتتان .

أجل ؛ وليس الجمال فماً متعطشاً أو يداً فارغة ممدودة ،

بل هو قلب متلهب ، ونفس مفتونة مسحورة .

وليس بالصورة التي ترغبون في رؤيتها أو الأنشودة التي ترجون سماعها .

بل هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم ، وأنشودة تسمعونها ولو أغلقتم آذانكم .

وليس بالعصارة الجارية في عروق الأشجار ، ولا بالجناح المتعلق في المخالب ؛

بل هو بستان تزينه الأزهار إلى الأبد ، وفوج من الملائكة ترفرف بأجنحتها الى منتهى الدهور .

نعم ، يا أبناء أورفليس ، إن الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي .

ولكن أنتم الحياة وأنتم الحجاب .

والجمال هو الأبدية تنظر الى ذاتها في مرآة

ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة .

الدين

ثم دنا منه كاهن شيخ وقال له : هات حدثنا عن الدين .
فأجاب قائلاً :

وهل تكلمت اليوم في موضوع آخر غير الدين ؟

أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات ؟

أليس الدين كل ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل ، بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبداً ، وان عملت اليدان في نحت الحجارة أو ادارة الأنوال ؟

من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله ، وعقيدته عن مهنته ؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه ، قائلاً :
« هذه لله ، وهذه لي ؛ هذه لنفسي ، وهذه لجسدي ؟ »

فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء متنقلة من ذات إلى ذات .

إن من ينظر إلى فضيلته نظرته إلى افضل حلة يلبسها ، فالأجدر به أن يسير بين الناس عارياً .

لأن الريح والشمس لا تمزقان بشرته .

وكل من يقيد سلوكه وتصرفه بقيود الفلسفة والتقليد ، إنما يحبس طائر نفسه الغرّيد في قفص من حديد .

لأن أنشودة الحرية لا يمكن أن تخرج من بين العوارض والقضبان .

وكل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يُغلقها ، فهو لم يبلغ بعد إلى هيكل نفسه الذي نوافذه مفتوحة من الفجر الى الفجر .

* * *

إن حياتكم اليومية هي هيكلكم وهي ديانتكم .

فخذوا معكم كل ما لكم عندما تدخلون هيكلها .

خذوا المحراث والكور والمطرقة والطنبور .

وكل ما لديكم من الآلات التي صنعتموها رغبة في قضاء حاجاتكم أو سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم .

لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ، ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم .

وليرافقكم جميع معارفكم من أبناء الإنسان .

لأنكم لا تستطيعون في عبادتكم أن تحلقوا فوق آمالهم ، ولا أن تضعوا ذواتكم إلى احقر من يأسهم .

* * *

وإن شئتم أن تعرفوا ربكم ، فـلا تعنوا بحـل الأحاجي والألغـاز .

بل تأملوا فيا حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم .

وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب ، ويبسط ذراعيه في البرق ، وينزل إلى الأرض مع الأمطار .

تأمـلوا جيداً ، تروا ربـكم يبتسم بثغور الأزهار ، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار .

المـوت

ثم قالت له المطرة : نودّ أن تحدثنا الآن عن الموت .

فقال لها :

انكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت ،

ولكن كيف تجدونها إن لم تسعوا اليها في قلب الحياة ؟

لأن البومة التي لا تفتح عينيها إلا في الظلمة، البومة العمياء عن نور النهار ، لا تستطيع أن تنزع الحجاب عن أسرار النور .

فاذا رغبتم بالحقيقة في أن تنظروا روح المـوت ، فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لجسدِ الحياة .

لأن الحياة والموت واحدٌ ، كما أن النهر والبحر واحد أيضاً .

* * *

ففي أعماق آمالكم ورغباتكم تتكىء معرفتكم الصامتة لما وراء الحياة .

وكما تحلم الحبوب الهاجعة تحت الثلوج بالربيع ، هكذا تحلم قلوبكم بربيعها .

لذلك فلتكن ثقتكم عظيمةً بالأحلام ، لان بوابة الأبدية مختفية فيها .

أما خوفكم من الموت فهو أشبه بارتجاف الراعي الواقف أمام الملك عندما يرفع يمينه فوق رأسه لكي يكرمه وينعم عليه بوسام الرضى والفخر .

أفلا يفرحُ الراعي مع ارتعاشه لأن ملكه يقلده وسام الشرف والرضى ؟

ولكن ألا يشعر مع ذلك بارتجاف جسده وخفقان قلبه ؟

وهل موت الإنسان سوى وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس ؟

أم هل انقطاع التنفس ، سوى تحرير النفس من مدّه وجزره المتواصل ، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلق في الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد ولا تعويق ؟

انكم تستطيعون أن تترنموا بالاناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت .

ولا تستطيعون ان تباشروا الصعود إلى الجبال حتى تبلغوا إلى قننها .

ولن تقدروا أن ترقصوا حتى تتسلم الارض جميع أعضائكم.

الوداع

وكان المساء .

فقالت العرافة المطرة : مبارك هذا اليوم وهذا المكان الذي جمعنا بك . ومباركة روحك التي خاطبت أرواحنا .

فأجاب وقال : وهل أنا الذي تكلمت ؟ ألم أكن أنا سامعاً نظيركم ؟

. . .

ثم نزل عن درجات الهيكل ومشى ، فتبعه الشعب بأسره .

وظل يجدّ في سيره والشعب يلحق به حتى وصل إلى المرفأ ، فصعد إلى سفينته ووقف على ظهرها .

حينئذ رفع صوته ، والشعب ينظر اليه ، وقال لهم :

يا أبناء أورفليس ، ان الريح تأمرني بأن أفارقكم .

ومع انني لستُ كالريح عجولاً ، فانني مرغمٌ أن أطيع أوامرها .

لأننا نحن الهائمين ، الذين ينشدون أبداً أشد الطرق وحدة ، لا نبدأ أعمال نهار ما ، عندما نفرغ من نهار غيره . ولا تجد شروق شمس حيثما تركنا الغروب التي تقدمه ؟

لأننا ، وان نامت الأرض ، مستيقظون نوالي مسيرنا .

نحن بذورُ نباتٍ متشبّث مضِب ، وفي بلوغنا واكتمال نمو قلوبنا قد وهبنا منحة الريح فتفرّقنا على وجه الأرض .

. . .

قليلة كانت أيامي بينكم ، وأقـــل منها كلماتي التي تركتها لـكم .

ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانـكم ، وزالت محبتي من قلوبـكم ، فحينئذ آتي اليكم سريعاً .

وأخاطبكم ثانية بقلب أوفر عطفاً من قلبي ، وشفتين أجرى إثماراً للروح من شفتي .

أجل ، انني سأرجع مع المدّ ،

فان حجبني الموت عنكم الآن وضمّني الصمتُ العظيم بين طيات سكينته فانني سأنشد إدراككم مرة اخرى .

ولن تذهب أتعابي في ذلك الحين عبثاً .

فإن كنت قد خاطبتكم اليوم بالحق الصريح ، فان هـــذا الحق سيظهر لـكم في ذلك اليوم بصوت أنقى من صوته اليوم ، وبكلمات أقرب إلى افـكاركم من كلماته اليوم .

انني ماضٍ مع الريح ، يا أبنـــاء أورفليس ، ولكن لن أهبط إلى العالم السفلي ، الى الفراغ الرهيب .

فاذا لم يكن هذا اليوم قد أكمل حاجاتكم وافهمكم من محبتي ، فليكن موعداً ليوم آخر .

فإن حاجات الانسان تتبدلّ ، ولكن محبته لا تتغير ، ومثلها رغبته في ان تشبع المحبة حاجاته .

فاعلموا إذن،انني سأرجع لكم من عالم الصمت والسكينة.

لأن الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر ، من غير ان يترك سوى قطرات صغيرة من الندى في الحقول ، انما تقع في الجو لكي يتجمع هناك فيؤلف السحاب الذي لايلبث أن يعود الى الأرض مطراً غزيراً .

وقد كنت بينكم مثل هذا الضباب .

ففي سكينة الليل كنت أمشي في شوارعكم ، وكنت أدخل بروحي إلى أعماق منازلكم .

وكانت نبضات قلوبكم تتردد في قلبي، وسحائب لهاثكم تنتشر على وجهي ، وقد عرفتكم بعُجَركم وبُجَركم .

نعم ، قد عرفت فرحكم وحزنكم ، وفي هجوعكم كانت أحلامكم أحلاماً لي .

وكثيراً ما كنت بينكم بحيرة بين الجبال .

فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قننكم الشاهقة ، ومنحدراتكم المتعرجة ، حتى قطعان افكاركم ورغباتكم العابرة عليها .

وكان ضحك أولادكم يجري إلى سكينتي مع مياه الجداول،
وكان حنين شبانكم وشاباتكم يأتي إليّ مع مجاري الأنهار .
مع أن الجداول والأنهار كانت تبلغ إلى اعماقي فإنها لم تكن تنقطع البتة عن الغناء .

. . .

ولكن هنالك ما هو أحلى من الضحك وأعذب من الحنين بين ما جاء إليّ منكم .
ألا وهو الكائن غير المحدود فيكم .
الإنسان البالغ العظمة فيكم . الذي لستم سوى أنسجة وعضلات في كيانه .

والمرنم الذي ليس غناؤكم أمام غنائه سوى اختلاج وهينمة .
وأنتم لا تعرفون العظمة إلا بهذا الإنسان العظيم الذي فيكم .
وعندما رأيته رأيت حقيقتكم ، واحببتكم .
لأنه ، هل في الوجود علوّ أو بُعد تصل اليها المحبة ولا يحيط بها في دائرة كيانه العظيمة الاتساع ؟
أم هل هنالك تصورات أو تمنيات أو أحلام تستطيع أن تسمو فتبلغ إلى أقصى ارتفاعه ؟
أجل ، ان هـــذا الانسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطاة ببراعم التفاح الجميلة .

فقدرته تقيدكم بالأرض ، وشذاه يرفعكم إلى أعالي الفضاء وفي عزمه وصبره على عواصف الطبيعة أنتم خالدون .

. . .

قد أخبرتم فيما مضى انكم كالسلسلة ، ضعفاء كأضعف حلقة في كيانكم .

غير أن هذا انما هو نصف الحقيقة . فأنتم أيضاً أقوياء كأقوى حلقة من سلسلتكم .

لأننا إذا حكمنا عليكم بأصغر أعمالكم كنا كمن يحكم على قوة البحر بما في زبده من الضعف وسرعة الزوال .

وان حكمنا عليكم بخيبتكم كنا كمن يلوم الفصول لتعاقبها وعدم ثباتها .

. . .

أجل انكم بالحقيقة كالأوقيانوس المظيم .

نعم ان سفناً كبيرة تنتظر مد البحر وجزره على شواطئكم ، فأنتم كالأوقيانوس ، لا تستطيعون أن تعجلوا مدّكم وجزركم .

وأنتم كالفصول أيضاً يا أبناء أورفليس ،

فانكم تتكرون ربيعكم في شتائكم ،

ولكن الربيع لا ينكركم ، بل يبتسم لكم في غفلته ، من غير أن يغضب أو يتعكر صفوه .

ولا يخطر لكم اني أقول لكم هذا لكي أحملكم على أن تهمسوا بعضكم لبعض قائلين : « قد أجاد في مديحنا والثناء علينا ، ولم ير سوى الصالح فينا » .

فانني أنقل اليكم ، ما تدركونه أنتم بأفكاركم .

وهل المعرفة اللفظية سوى ظل للمعرفة غير اللفظية ؟

لأن أفكاركم وكلماتي مـا هي عند التحقيق سوى أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التي تحتفظ بدواوين ماضينا وما جرياته ،

وحوادث الأيام المنصرمة ، عندما لم تكن الأرض تعرفنا ، وكانت تجهل ذاتها أيضاً .

وأحلام الليالي عندما كانت الأرض خربة خاوية خالية .

. . .

قد جاءكم الحكماء قبلي لكي يقدموا لكم من حكمتهم ، أما أنا فقد أتيت اليكم لكي أغترف من معين حكمتكم .

وها أنذا قد وجدت ما هو أعظم من الحكمة :

قد وجدت روحاً ملتهبة فيكم ما برحت تستزيد من جمع مبطاوات ذاتها ،

غير أنكم كنتم وما زلتم غافلين عن اتساعها وتعاظمها ، تنوحون وتبكون على أيامكم الزائلة .

فان الحياة تفتش عن الحياة في أجسام الذين يخافون القبور.

. . .

ولكن لا قبور ههنا .

لأن هذه الجبال والسهول انما هي بالحقيقة سرير ومرقاة .

فاذا قادتكم خطواتكم إلى الحقـــل الذي وضعتم فيه أسلافكم فتأملوا جيداً في جميــع جهـــاته ، تروا ذواتكم ترقصون مع أولادكم جنباً إلى جنب .

فإنني الحق أقول لكم ، انكم كثيراً ما تفرحون وانتم لا تعرفون .

. . .

وآخرون جاءوا اليكم وعللوكم بالمواعيد الذهبية التي تبنون عليها صروح ايمانكم ، فوهبتموهم ثروة وقوة وعظمة .

أما أنا فقد أعطيتكم أحقر موعد ، ولكنكم أظهرتم نحوي أريحية لم تظهروها لسواي .

فقد أعطيتموني تعطشي الشديد للحياة .

واني أصارحكم القول ، انه ما من عطية في هذا العالم أجزل فائدة للانسان من العطية التي تحوّل كل ما في كيانه من الأميال والرغبات إلى شفتين محترقتين عطشاً ، وتجعل حياته جميعها ينبوعاً حياً باقياً .

وهو ذا فخري وأجري ،

في أية ساعة جئت الينبوع متعطشاً ، أجد المـــاء الحي المتدفق من فم الينبوع عطشاناً أيضاً .

فيشربني هذا الماء كما أشربه .

. . .

وقد خيل إلى البعض منكم انني عيوفٌ حيي ، فلاأقبل عطية من عطاياكم .

على انني بالحقيقة أكره قبول الأجور ، لكنني لا أرفض العطايا .

وانه غير خافٍ عليكم انني كنت أتقوت بأثمار العليق والتوت بين التلال ، في حين انكم كنتم ترغبون في أن أجالسكم حول موائدكم .

وكنت أنام في رواق الهيكل في حين أن كلا منكم كان يفرح لو يتاح له أن يأويني في بيته .

ولكن ، أليست محبتكم الشديدة المزوجة بدموع العناية بأيامي ولياليّ هي التي جعلت الطعام حلواً في فمي ، وحفّت نومي بالوحي والأحلام الحلوة ؟

. . .

لأجل هذا أباركـكم من أعماق قلبي ،

لأنكم تعطون كثيراً ولا تعرفون أنكم تعطون شيئاً .

الحق أقول لكم ، ان اللطف الذي ينظر إلى ذاتـــه في مرآة ينقلب حجراً .

والعمل الصالح الذي يسمّي نفسه بأسماء جميلة يصير والداً للعنة كريهة .

. . .

وقد دعاني فريق منكم متوحداً ، ثملاً بمحبة وحدتي .

أما أنتم فقلتم بعضكم لبعض : « لا تبالغوا في عذله وملامته ، فإنه يحب أن يؤلف مجلسه من أشجار الاحراج وليس من ابناء الإنسان .

« قلتم انه يستلذ الجلوس على رؤوس التلال والنظر إلى مدينتنا .

واني بالحقيقة قد تسلقت التلال ومشيت في أراضٍ بعيدة جداً .

لأنه كيف أمكنني آن أراكم من غير أن أكون في علو شاهق ، أو بعد شاسع ؟

أو كيف يستطيع أحدٌ أن يكون قريباً ما لم يكن بعيداً؟

. . .

وغيركم من كان يناديني ، ولكن بغير الألفاظ ، ويقول لي :

« أيها الغريب ، أيها الغريب المتعشق ما لا يُبلغ اليه من الشاهقات ، لماذا تقطن بين قنن الجبال حيثما تبني النسور أعشاشها ؟

لماذا تسعى إلى ما لا سبيل للحصول عليه ؟

أيُّ نوع من العواصف تريد أن تصطاد لشبكتك ..

وما هي الطيور الخيالية التي تفتش عنها في السماء ؟

هلمّ الينا ، وكن واحداً منا .

اهبط من عليائك ، وسكّن حدة مجاعتك بخبزنا، واخمد لظى عيشك بلذيذ خمرتنا ؟ »

قالوا هذه الاقوال كلها في وحدة نفوسهم .

ولو كانت وحدتهم أعمق مما هي لأدركوا انني لم أكن أسعى إلا إلى إدراك سرّ أفراحكم وآلامكم .

ولم أكن أصطاد سوى ذواتكم الكبرى السائرة نحو السماء.

. . .

ولكن الصياد قد صار صيداً .

لأن كثيراً من سهامي لم تترك قوسي إلا لكي ترتدّ إلى صدري .

والطائر قد صار زحافة :

لأنني عندما بسطت جناحيّ في الشمس صار ظلها على الأرض سلحفاة .

وأنا المؤمن قد صرت مرابا :

لأنني كثيراً ما وضعت أصبعي في جنبي ، رجاء ان أبلغ إلى كال ايماني بكم ومعرفتي لحقيقتكم .

. . .

وبهذا الايمان وهذه المعرفة أقول لكم :

انكم لستم محصورين في سجون أجسادكم ، كلا ، ولستم مقيدين بجدران بيوتكم وحدود حقولكم .

فان الذات الخفية التي تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح ،

لأنها لا تدب الى الشمس مستدفئة . ولا تلمس طريقها في الظلمة مستنجدة .

بل هي روح حرة طليقة تكتنف الأرض وتركب دقائق الأثير .

. . .

وان جاءت كلماتي هذه غامضة على أفهامكم فلا تسعوا وراء ايضاحها .

فان الغموض والسديم هما بداءة كل شيء لا نهايته ،

وانني بملء الرغبة أود أن تتذكروني كبداءة .

والحياة وجميع الكائنات الحية ، انما تتصور اولاً في الضباب وليس في البلور .

من يدري أن البلور لم يكن ضباباً متجمداً ؟

. . .

وهذا ما أود أن تحتفظوا به مع ذكراي ،

ان ما يبدو لكم ضعيفاً متضعضعاً فيكم هو أقوى وأثبت ما في كيانكم .

لأنه أليس لهاثكم هوالذي يقيم بنيان عظامكم ويشدده؟

بل أليس الحلم الذي لم يحلم به أحد منكم قط هو الذي بنى مدينتكم وعمل كل ما فيها ؟

فلو كان لكم أن تنظروا مجاري ذلك اللهاث لما كانت لكم حاجة أن تنظروا شيئاً آخر غيرها .

ولو استطعتم أن تسمعوا مناجاة ذلك الحلم ، لما كنتم ترغبون في سماع اي صوت آخر في العالم .

. . .

ولكنكم لا تنظرون ولا تسمعون ، وحسناً تفعلون .

فان الحجاب المسدول على عيونكم ، سترفعه اليد التي حاكته .

والطين الذي يسدُّ آذانكم ، ستنتزعه الأصابع التي جبلته .

وحينئذ تبصرون ،

وحينئذ تسمعون .

بيد انكم لن تتحسروا على انكم كنتم عمياً أو صماً .

لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء ،

وستباركون الظلمة كما تباركون النور .

وعندما قال هذا نظر حوله ، ثم تطلع الى البحر فرأى سفينته وربّانها منتصباً أمام السكّان ، ينظر تارة الى الأشرعة وطوراً الى البحر .

فقال :

ان ربان سفينتي واسع الصدر جزيل الصبر .

فان الريح تهب بعنف ، والأشرعة مضطربة ،

حتى ان السكان نفسه يحتاج الى من يديره ؛

ومع كل هذا فإن ربان سفينتي ينتظر سكوتي بصبر .

وهؤلاء الملاحون رفقائي ، الذين سمعوا جوق المنشدين في البحر الأعظم يصغون اليّ بطول أناة ،

ولكنهم لن ينتظروا لحظة واحدة بعد .

فإنني على أتم الأهبة للسفر ،

فقد وصل الجدول إلى البحر ، وأتيح للأم العظيمة أن تضمّ ابنها إلى صدرها مرة ثانية .

. . .

فالوداع ، الوداع ، يا أبناء أورفليس .

قد غربت شمس هذا اليوم .

وأغلق علينا أبوابه كما تغلق زنبقة الغور أوراقها على غدِها .

فكل ما أعطيناه هنا سنحتفظ به .

وإذا لم يكن كافياً لسد حاجاتنا ، فاننا نأتي ثانية إلى هذا المكان معاً ، ونمد أيدينا معاً لمن أعطانا أولاً .

ولا تنسوا انني سأعود اليكم مرة اخرى .

فلن يمرّ زمن قليل حتى يشرع حنيني في جمع « الرمل والزبد [1] » لجسد آخر .

---

(١) اشارة الى الكتاب الذي وضعه فيما بعد بعنوان « رمل وزبد » .

قليلاً ولا تروني ، ولكن بعد قليل تروني ،
لأن امرأة أخرى ستلدني .

. . .

أودعكم وأودع الشباب الذي صرفته معكم .
فاننا في الأمس اجتمعنا كما في حلم .

قد أنشدتم لي في وحدتي ، وبنيت لكم من أشواقكم برجاً في السماء .
ولكن عهد النوم قد انقضى ، والحلم قد مضى ، ولسنا الآن عند بزوغ الفجر ،
لأن الظهيرة ترقص فوق رؤوسنا ، ويقظتنا الناقصة قد تحولت الى نهار كامل ، فيجدر بنا أن نفترق .
فاذا جمعنا شفق الذكرى مرة اخرى فاننا حينئذ نتكلم معاً ، وحينئذ تنشدون لي أنشودة اوقع في النفس من أنشودة اليوم ،

وان اجتمعت ايدينا في حلم ثانٍ فهنالك سنبني برجاً ثانياً في السماء .

. . .

وعندما قال هذا أشار إلى الملاحين إشارة تؤذن بالسفر ، فرفعوا مرساة السفينة في الحال وحلوا حبالها ، وساروا نحو الشرق .

فصرخ الشعب كله بصوت عظيم كما من قلب واحــد ، وتعالى صراخهم في الشفق فحملته دقائق الهواء فوق البحر كأنه صوت بوق عظيم .

أما المطرة العرافة فكانت صامتة وحدها ، تشيع السفينة بنظرها حتى توارت في الضباب .

ثم تفرق الشعب كلٌ في سبيله ، بيد انها ظلت وحدها واقفة على شاطىء البحر تردد في قلبها كلمات المصطفى الأخيرة:

« قليلاً ولا ترونني ، قليلاً وترونني ،
لأن امرأة أخرى ستــلدني » .

فهرست

توزيع
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص.ب: ٨٧٣٧